(أَحمِرةٌ وحُمُرات)

_ شوقي مسلماني.

إهداء:

إلى أمّي

جواهر مهنّا مسلماني "أم شوقي"

التي لم تتعلّم القراءة والكتابة

وعلى الرّغم، وفيما كانت تُعدُّ الطعامَ أو تطوي الغسيل،

كانت تدرِّس إبنَها الصغير وتثني عليه إذا أحسن

وتصوِّب له إذا أخطأ.

إهداء أيضاً:

إلى أبي

شاهر علي مسلماني "أبو شوقي"

الذي دخل مدرسة حوض الولاية _ بيروت _ أوّل مرّة

وعمره 16 ربيعاً وتركها بعد 3 أشهر فقط،

وعلى الرّغم، وبعد أقلّ من عقد كان يقتعد كرسيّ قشٍّ بلا مسند

ويقرأ من قصّةِ الزير سالم أبي ليلى المهلهل على حلقات

لجمهورٍ من أصدقائه في حوشِ الأمراء الفقراء.

تقديم:

كان ياما كان في قديمِ الزمان
إخوانٌ على ألوان، وكانت لهم أعياد مشتركة،
وفي يومٍ إصطدمَ نيزك ضخم يجرُّ خلفَه مذنّب لهب بكوكب الأرض
ودمّرَ أغلبَ المراعي واقتلع من جذورِ الجذور أغلب عيون الماء
وحرفَ عقولَ الآباء والأبناء ومنها عقول
الذين تدافعوا على ما تبقّى من سُبُل الحياة باللّكمِ واللّخم
عوض أن يتكاتفوا وأن يتكافلوا حتى تتعافى الأرض وتعوّضهم ما فاتهم،
وأفنوا بعضهم بعضاً ولم يبقَ منهم إلاّ أقلّ القليل،
وقد صاروا جميعاً على ألوانٍ جافّة، مقطوعةِ الجنى، بائرةٍ، ميّتة.

1 _ إستراح من لا عقل له.

بلسانِ الجعجعة وهي لسان الرحى قالَ: "لا تهرفْ بما لا تعرف _ والهَرَفُ هو الإطناب في المدح والمثَل يُضرَب لمن يتعدّى الحدود في مدحِ الشيء قبلَ تمام معرفتِه _ شرّ أيّام الديك يومَ تُغسل رجلاه _ ويكون ذلك بعدَ الذبح والتهيئة للطبخ _ يا إبن أمِّه إعلمْ إنّ الحوافر هي للملاكمة والحميرُ تُعرَف بالنهيق و"عندما يُطلِعُنا رجلُ العلِم على نتيجة تجربتِه يُطلِعُنا على كيفيّة إجراء تجربتِه أيضاً لكي يكون بمقدورِنا أن نجريها وإذا لم نحصل على النتيجة المرجوّة ذاتها فإنّ نتيجةَ تجربتِه لن نقبلَها كحقيقة". وبربرَ وزمجرَ وجرجرَ وبأْبأَ بفِيه وقال: "أظهرتْ

تجاربي أنّ اللبيط عِلم ولكنّه عِلم قائم لذاتِه لا بذاته"!. وسمعَ إبنُ أمّه وقال: "تحكّكتِ العقربُ بالأفعى _ والمثل يُضرَب لمن ينازع مَنْ هو أقوى وأقدر _ يااا إبن أبيه "إنَّ الغزال الذي يقف ساكناً ويتلقّى رصاصةَ الصيّاد التي تقتله لو يمتلك عقلاً واعياً لإستفاد منه وعرِف ما يجري ويُحاك له وأنقذَ حياتَه مِنَ الموتِ المحتّم"، إنّ الحوافر هي أيضاً للدّعْس والمعْس والفعْس والهرْس، أنتَ كالمربوط والمرعى خصيب؟!، خسئت، ليس اللبيط عِلم قائم لذاته بل هو عِلمٌ قائم بذاتِه ويُشرِف مِنْ أعلى برج الأسد على اللياقةِ البدنيّة والأمنِ والإستقرار، ما هكذا تُورَدُ يا سعدُ الإبل، و"قيل إنّ حماراً تنكّرَ في شبه أسد، فلّما رفعَ صوتَه وصاحَ عُرِفتْ حقيقتُه"، ويقولُ الزير قهّار المواكب.. رماني الدهرُ في كلِّ المصائب.. فلا تسمع أخي قولَ الأعادي.. لأنّ الضدّ شوره ليس صائب.. ويشورون عليك في رأيٍ وخيم.. ليسقوكَ أخي كأسَ العواطب"، وقالتِ إمرأةٌ لجارتها: "كيف صار الرجل يتزوّج بأربعة ويملك مِنَ الإماء ما يشاء والمرأة لا تتزوّج إلاّ واحداً ولا تستبدّ بمملوك؟، قالتْ: قومُ الأنبياء منهم والخلفاء منهم والقضاة منهم والشُرَط منهم فحكموا فينا كما شاؤوا وحكموا لأنفسِهم بما أرادوا"، "يا أحمق مِنْ ناطحِ الماء لا تشرب السمّ إتّكالاً على الترياق". ردّ إبنُ أبيه حانقاً: "مفتاحُ البطن لقمة" ومفتاحُ الشرّ كلمة لا نهقة، ويقولون للحمار: "حاااا" ويصبر، ويقولون له: "هِشششششْ"، ويصبر، فما العجب إذا أمسى لقمةً سائغةً في فم الأسد أو الفهد أو الضبع أو النمِر أو الذئب أو الثعلب أو إبن آوى أو إبن عُرس أو إبن كلّ عَرص؟، "إنّي آكل لحمي ولا أدعه لآكل". وقال رجلٌ لمزبّد: "إذا استقبلكَ الكلبُ في الليلِ فاقرأْ: يا معشرَ الإنسِ والجنّ إن استطعتم أن تنفذوا مِنْ أقطارِ السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان" _ الآية 33 مِنْ سورة الرحمن _ قال مزبّد: "الوجه عندي أن تكون معك عصا".

إرتعدتْ فرائصُ إبن أمّه وقال: "يا أختل مِنَ الذئب"، ردّ إبن أبيه قائلاً: "يا أحقد مِنَ الجمَل"، قال إبن أمّه: "أسدٌ اشتدّ عليه الحرّ فدخلَ في بعضِ المغائر يتظلّل، أتاه جرذٌ ومشى فوق ظهرِه، فنظرَه الأسد وضحكَ منه وقال: ليس مِنَ الجرذ خوفي وإنّما كبر عليّ احتقاره لي _ أي أنّ الهوان على العاقل أشدّ مِنَ الموت _ قال إبنُ أبيه: "وقفتْ بعوضةٌ على قرنِ ثور، وحين قالتْ: أثقلتُ عليك؟ أجاب: لا يهمّ، فنزولك مثل رحيلك".

وهكذا تهامزا وتلامزا حتى إستشعرَ إبنُ أمّه إرهاقاً وطلبَ السلامةَ بالسؤال قائلاً: "ألا يُقال إلى أمّه يلهفُ اللهفان"؟ _ والرجلُ يلهفُ إلى أهلِه، واللهفانُ هو المتحسِّر والمكروب _ قالَ إبنُ أبيه: "الإيناسُ قبلَ الإبساس _ ويقال للناقة قبلَ حلبِها "بس بس" والناقةُ التي تدرُّ على الإبساس تُسمّى "البسوس _ قالَ إبنُ أمّه لذاتِه: "مَنْ خشي الذئبَ أعدّ كلباً"، وقال لإبن أبيه: "لماذا لا نذهب إلى كبيرنا الكونت _ الخواجا _ _ المهراجا _ وهو يعثر لنا على العقل الذي ضاعَ بيني وبينك"؟!.

وطارا إلى وادي النار وجبلِ الكبريت وإذا حميتِ الشمسُ تغدو مثل جهنّم، ونظراه يُعلِّق على صدرِ إمرأةٍ حبلى إتّقاءَ ليليث _ الجنيّة ليلى _ الجناح الأيسر لدجاجة، وإنتظرا حتى زفرتْ وشهقتْ وخرجتْ. سجدا له وعرضا عليه ما أشكل عليهما. قالَ: "لا يحمل الحقدَ مَنْ تعلو به الرتب.. ولا ينال العُلا مَنْ طبعه الغضب. مَنْ طلبَ العُلا مِنْ غير كدّ.. سيدركها إذا شابَ الغراب". أليس ديننا يحثّنا إذا أُشكِل علينا أو غُرِّر بنا أن نقصد حومةَ الميدان ومَنْ يطعن خصمَه ويريحه مِنْ عمرِه أو يضربه على هامِه ويلقي رأسَه قدّامه تُضرَب له النوبات وتزغرد النساءُ والبنات ويكون على الحقّ فيما القتيل هو على الباطل والخزي والعار"؟، قال إبنُ أبيه لإبنِ أمّه: إنّ "مَنْ يضع نفسَه مواضع التهمة لا يلومنّ مَنْ أساءَ به الظنّ".

وإنطلقا إلى حومةِ الميدان، وقالَ إبنُ أمّه: "أنا البطل الرئبال"، وقالَ إبنُ أبيه: "أنا قومُ اللقا عندَ النطاح"، وإصطدما كأنّهما جبلان وتعاكستْ بينهما ضربتان

وسقطا على الأرض أربع قطع. وقال سيّدُهما وقد رأى بأمّ عينيه وأبيهما: "إستراحَ مَنْ لا عقل له"!.

2 _ يُمهِل ولا يُهمِل.

غنّتْ على المجوز والطبلة والطبل والرباب والعود والناي والشبّابة أو المنجيرة أغنيةً ذاعت في أربع أرجاء المعمورة وسُرَّ أو فرِحَ أو إنطربَ بها الملك والأمير والشيخ والفتى الصغير والطفل الرضيع المقمّط بالسرير. وحكايةُ هذه الأغنية أنّ أحدَهم عشق إحداهنّ عشقاً أين منه عشق قيس لليلى أو عشق جميل لبثينة أو عشق كُثير لعزّة أو عشق عنترة لعبلة أو عشق سلفادور دالي لغالا أو عشق شاه جهان لممتاز محلّ أو عشق روميو لجوليات، وإذا الآباء العذريّون صرّحوا بما يتلاطم في أرواحهم وقلوبهم وصدورهم فإنّ صاحبنا آثرَ الكتمان، وما إنقضتْ أشهر قليلة حتى غلبَ عليه ما هو فيه مِنِ إنحباسٍ وتيه وصارَ عقلُه يلعب به وعيناه تغشّانه، ومثالاً رأى في مرّة طاولة صغيرة ظنّها مأدبة لفرد واحد، جرى إليها لكي يمسك منها بنيانه، وهو قريب رآها لا تعدو أن تكون ذات حبيبته وقد انحنتْ بوضعيّةٍ رياضيّة تلامس كفّاها الأرض، أصابَه ذعر أنّ يكون قد فكّر بإلتهامها، قالَ لروحه المذعورة وهو يُدبِر: "وإحسبيني يا روحي غولاً، هل سمعتِ يوماً أنّ غولاً أكلَ غولتَه"؟. وفي مرّة إستبدّ به العطش، ورأى جرن ماء طافحاً إلى جمامه يتلألأ في عين الشمس، ركض إليه وفي نيّته أن يفرغه في جوفه، ورأى، وهو عند الجرن، وجهها الذي لم يكن غير وجهه منعكساً في الماء، اندهش فيما هي مندهشة، ظنّ أنّها تستحم وغطست خجِلةً، فرّ مبتعداً أن تكون قد ظنّت به الظنون مثل أن يكون مصاباً بداء البصبصة.

وعلى هذا النحو طولاً وعرضاً حتى أصابَه نحولٌ مهول، وحتى برزتْ عظامُه كأنّه مصاب بداء النحافة _ أنيروكسيا. ونهضتْ له روحُه وهي تكاد مثله تلفظ أنفاسَها الأخيرة وقالت: "يا نور عينيّ، ما ذنبي أنا لأنفقَ إذا أنت تريد أن تنفق؟، وإذا أنت تريد أن تنفق إلى أين من بعدك سأذهب وماذا سيحلّ بي؟، لماذا لا تطلعها على ما فيك؟، فإذا قبلتْ قلْ بلغتَ مرادَك وإذا رفضتْ قلْ كما قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي: "سلام عليها ما أحبّت سلامنا، فإن كرهته فالسلام على أخرى"!. قاطعَها لكي تكفّ عن هذه الثرثرة بكلّ ما أوتي من حياة بعدُ فيه وقال: "لا أظنُّكِ تعتقدين أن الشمسَ هي من اختراعك، ماذا لو صارحتُها وهي صدّتني؟، ماذا إذا روّجت، ولو مِنْ باب التباهي، أنّها حبّوبة، محبوبة، مرغوبة ومطلوبة، أو مِنْ باب المراسلة المُشفَّرة لكي يعلم آخَر هي تحبّه أنّ حديدان ليس وحده في الميدان، ولكي يفوز بها عليه أن يُسرِع إليها؟، أو مِنْ بابِ الكلام بكلام وبلغ عاذلاً استغلّها فرصة للتشويش والتعريض بي واستعجل مِنْ حقلٍ إلى حقل ومن بيدر إلى بيدر ومن معلف إلى معلف ومن إسطبل إلى إسطبل متقوّلاً إنّها أنكرتْني لأنّي أشهق وأزفر عوض أن أزفر وأشهق أو لأنّ ذيلي عصعوص _ عصاص _ عصّ _ لا نبريش ماء وإنّ يديَّ وقدميَّ حزوز جبنة "لافاش كي ري" - البقرة الضاحكة - وليستا حوافر أو صخوراً؟، وبأسرع مِمَّا تلتهمُ النارُ في الهشيم سأغدو على كلِّ شفة ولسان، وستقولُ العجائز: "ويله، مَن غشّنا ليس منّا"، وسيتبعني الأولاد في الأزقّة قارعين على التنك وصائحين: "الجاسوسْ أَهُوْ أَهُوْ، الجاسوسْ أَهُوْ أَهُوْ"، وإذّاك، يا روحي، كم سألعنكِ، وكم سألعن الداية التي سحبتْ رأسي، وسأتمنّى من أعمق أعماق قلبي لو تظهر الضبع أمّ عامر وتزلطْني مثلما يتمنّى المنفيّون عن أهلهم وأحبّتهم وأوطانهم لو تنشقّ الارض وتبتلع القومَ الظالمين".

وفيما روحُه تتّهمه بالجنون وهو يتّهمها بالحمرنة وهي ترجوه أن يكفّ عن جنونه وهو يقطّب لها جبينَه إستنكاراً لعقلها الذي لا عقل فيه، أو فيما هي تكاد تفرّ

منه وهو يكاد يفرّ منها وإذْ محبوبته مُقبِلة على "الدقّه ونصّ" كأنّها ترقص وتحاذيه مُضيّقةً عليه، ويلمسُ بطنُها العامرُ بطنَه الضامرَ، وتقف تحت أنفه، ويفرك عينيه ويتشمّم عطرها ويقول لذاته: "هذه هي محبوبتي سالبة عقلي ولبّي بجسمِها المنطاد وذراعيها وساقيها الخيطان ويديها وقدميها الكَشَاتْبين"، ويضيف لروحه: "أنظري، إنّها تموت بتلابيبي"!. وعوض أن يناغيها سرعان ما يجافيها ويتأخّر عنها. قالت له روحه وقد أخذتها المفاجأة: "ماذا دهاك؟، إنّها أمامك على طبق من فضّة أو ذهب"!. وأشارَ أن تكفّ عن السخف وقال إنّه سيلفّ وسيدور، وهل حضارة الإنسان إلاّ من اللفّ والدوران؟، وإنّه سيسأل أهلَه أن يسألوا أهلَها بعد لفٍّ ودوران، وسيقولون وهم يلفّون ويدورون إنّ إبنهم ولا مثله بالعمل مِنَ الفجر إلى النجر ويحمل على ظهرِه ما ينوء به جمل، وأهلُها سيلفّون وسيدورون وسيقولون إنّ إبنتهم آية، وقولوا لها: "حاااا" وستمشي، وقولوا لها: "هشششششْ" وستقف، وسيعطوني، وسيباركون لي، وستكون أفراح وليالٍ ملاح، وسيدكّ الخلاّنُ الأرضَ بأقدامهم، وسيلوّحون بمحارمِهم، ولسانُ حالهم يقول وأعمار الكرام تطول: "نحن هنا وسنظلّ هنا"، وسأطلب ألاّ تكون فرقعة أو كركعة لئلا تتأذّى فراشة أو بعوضة، أنا أريد فرَحاً لا ترَحاً، وسيلبّون جميع طلباتي".

وعلى هذا النحو أيضاً كانت روحُه تسمع وترى وتلطم وتولول حتى مِنْ لا مكان برز جحشٌ إسمه جحشان مقبلاً عدواً على خمس سيقان وعيناه على فاتنة الألباب التي كانت في ذهاب وإياب إنتظاراً لحمار الحمير حتى يَفرغ مِنْ حوارِ الطرشان مع روحه. وقفز جحشان، وزقزقَ عصفور، وفاضت القدور، واستيقظَ نائمٌ من بين النيام متوعّدَاً البرَّ بمزيدٍ مِنَ البعر والزفيرِ والشهيق بعد تسعة أشهر بالتمام والكمال.

وعصرَ يومٍ تصادفا عند بعضِ الماء، قالَ لجحشان بصوت قرضته الجراذين والفئران: "يا حمار الحمير، أنا أخوك وأنت أخي، بأي شريعة تغدر بي؟، كيف طاوعَك ضميرُك، لا صبر بي بعدُ، اعطني خنجراً مسموماً أريد أن أنتحر.. وعلى الدنيا العفا والسلام"!.

وسمعَ رعاةٌ وتسامروا بما سمعوا في العشيّات، ونقل عنهم ركبانٌ الى أبعدِ البلدان، وقامَ شاعرٌ نظّام وشالَ وحطَّ وأنقص وأضاف وحملَ ما صنع إلى ملحِّن عملَ ما عمله، ومعاً استعرضا مطربين ومطربات ومغنّين ومغنّيات ومؤدّين ومؤدّيات، وصار عقْدٌ مع غنّوجةٍ من الغنّوجات الفرعونية العينين، التفاحيّة الخدّين، العبليّة الزندين، التي صنعتْ فيديو كليب، غنّت وتشخلعتْ وعملتْ حركات سويديّة، وحقّقَ الفيديو نجاحاً، وأكثر من أُعجب به قادة ورؤساء وملوك وقياصرة وأكاسرة قصّوا الألسن، صلموا الآذان، جدعوا الأنوف، سملوا العيون، قطعوا الأيدي والأرجل مِنْ خلاف، وأُمهِلوا ولكنْ لم يُهمَلوا قطّ.

3 _ لونُ اللّونِ الأبيض.

قالَ مبارَك بالقهقهة _ وهي لسانُ القرد _ إنّ النهيق منطِقُ الحمار، وإن المُطفأ لا يَعرِف أكثر ممّا عرفَ على أبويه اللّذين لم يعرفا أكثر ممّا عرفا على أبويهما، تسلسلاً حتى رأس ناحية البراري والإسطبلات وآذانِ ناطحاتِ السحاب. تعلّمْ يا مبروك أنّ لون اللّون الأبيض أحمر ياقوت"!. وشخرَ مبروك ونخر وسبَّ الشمسَ والقمر وقال: "لا يستقيم الظلُّ والعُودُ أعوج"، اللّون الأبيض لونه أخضر زمرّد وليس غير أخضر زمرّد"!. ونعقا على بعضيهما البعض أو نهقا أو زعقا. وسمعَ أخوهُما بركَة وركض نحوهما وضحك بعدما سمع ما قالاه حتى انقلب على ظهرِه ضحكاً، ومثلما يُقال "ذهبَ الحمارُ يطلبُ قرنين عادَ مصلومَ الأذنين" قال وهو لا

يزال على ما هو فيه: "لا يا مبارك ولا يا مبروك، لا أحمر ياقوت ولا أخضر زمرّد، هو أزرق فيروز ". غضب مبارَك ومبروك أن يكون أخوهما بَرَكة على هذا القدر من التيه، قالَ مبارَك لابطَاً بالطول والعرض: "على الباغي يا بركة تدور الدوائر، اللّون الأبيض لونه أحمر ياقوت"، وقالَ له مبروك وعيناه تكتظّان بالتحدّي فيما يوسّعهما: "لا يا برَكة، لا أحمر ياقوت ولا أزرق فيروز، بل هو أخضر زمرّد وليس غير أخضر زمرّد". واختلطَ الحابل بالنابل عواءً ونباحاً، وكان في الجوار ظربّان _ دويّبة فوق جرو الكلب منتنُ الريح كثير الفسوِ، قالوا إنّه يأتي جحرَ الضبّ فيفسو فيه فيخرج الضبُّ فيأكله _ وتوسَّطهم وفسا بينهم، ولذا يُقال: "فسا بينهم الظربّان". ولئلاّ ينفقوا من الرائحة الكريهة سابقوا الريح في الإتّجاهات كافّة.

وفي اليوم التالي وهم عند أجران الماء قالَ مبارك كأنّما إعتذاراً عن حديثِ الأمس: إنّ "أعْقَل الناس أعذرُهم للناس"، وقالَ مبروك: إنّ "مَنْ طلبَ أخاً بلا عيب بقي بلا أخ"، وقالَ بركة: "شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض _ مثلٌ يُضرَب للرجل حين يصيب في فعلِه أو منطقِه مرّة ويُخطئ مرّة، وأصل المثل في الحالِب الذي تارةً يُخطئ فيحلب في الأرض وتارةً يصيب فيحلب في الإناء، والشُخْبُ هو الحليب يخرج مِنَ الضرع _ وقيل: "بكلّ وادٍ أثرٌ مِنْ ثعلبة _ مثَلٌ قالَه رجل مِنْ بني ثعلبة رأى في قومِه ما يسوؤه، فإنتقل إلى غيرهم، فرأى منهم مثل ذلك _ وحثَّ شقيقيه مبارك ومبروك أن يكون لهم معاً كلام واحد في لون اللّون الأبيض. قالَ مبارَك لذاته: "تلبَّدي تَصِيدي _ والتلبّد هو اللّصوق بالأرض لختْلِ الصيد _ وقال لأخويه: "كلامنا الموحّد هو أنّ لون اللون الأبيض أسود بلون الماس الأسود". ارتعدتْ مفاصلُ مبروك وقالَ: "موقفُنا هو إنّ لون اللون الأبيض أصفر بلونِ زهرِ الصبّار الأصفر وكلُّ كلام آخَر لا إعتبار له حتى يشيب الغراب"، ونظرَ إلى برَكة وقال له: "ويلك يا أزرق العين" _ ويُقال: يا أزرق العين للعدوّ، ويقولون في معناه:

هو أسود الكبد _ وضربَ الأرضَ بقدمِه، وتقدّم وتأخّر، والتفتَ إلى مبارَك وقال: "لون اللون الأبيض أصفر بلونِ زهرِ الصبّار الأصفر وهذا آخر كلام عندي". وقالَ بركَة: "خذوا لبيطاً إذا شبع اللئيم، وإذا هو من مدينة عبقر قولوا هو حمار إبن حمار أو حمار الحمير لا يكفّ عن التخاطب مع غيرِه باللغة التي لا يفقهها أحد غيره، لون اللون الأبيض بلون الياقوت الكشميريّ الأزرق السماويّ وليس بغير الياقوت الكشميريّ الأزرق السماويّ". قاطعاه، مبارك ومبروك، باللّطم، وحثّاه على الإهتداء. ومَنْ كان نعجة أكلَه الذئبُ، ونهشتِ الحيّةُ ولدغتِ العقرب، ومبارك ينعق نعوقَ الغراب ومبروك يهدر هديرَ الجَمَل وبرَكة يعزف عزيفَ الجنّ حتى رأوا أسداً مقبلاً على صهوة الريح. فرّوا لا يلوون على شيء خوفاً من الموت المحتّم.

وفي اليوم الثالث كانوا إلى مأدبة، قالَ مبارك: "لكلِّ صارمٍ نبوة" _ ونبا السيفُ: تجافى عن الضربة _ و"لكلّ جوادٍ كبوة" _ وكبا الحصانُ: عثر _ و"لكلّ عالِمٍ هفوة" _ وهفوةُ العالِم: زلّتُه _ والتقاه مبروك وقال: "النهيق مُنتَج طبيعيّ وطبعه المرح فيماالزعيق مُنتَج صناعيّ مثل أزيز الرصاص وجعير الصواريخ وغيرهما مِنْ لغاتِ اللصوصيّةِ والكراهيّة". وافق بركة وقال: "إذا تكاثرتِ الحوافرُ تكاثرت المشاجرات وحوادثُ المرور". واتّفقوا أنَّ الكلب الحيّ خير مِنَ الأسد الميْت وأنّ المهراجا أو الخواجا أو الكونت أو الباشا أو اللّورد نار على عَلَم _ والعَلَم هو الجبل المرتفع _ وأنَّ صاحبَ الحاجة أعمى، وأنّ العبدَ مطيّة الإقطاعيّ، وأنَّ الكومبرادور ذيل البرجوازي أو الرأسماليّ أو الإمبريالي.

وطاروا إلى كبيرِهم، ودخلوا عليه وحدّثوه فيما اختلفوا فيه وهم جاهزون لسماع ما سيقول فقال: يُقال "أعقلْ لسانَكَ إلاّ في أربعة: حقّ توضحه وباطل تدحضه ونعمة تشكرها وحكمة تظهرها"، والرجالُ أربعة: "رجلٌ يدري ويدري أنّه يدري فذلك عالِمٌ فاتبعوه، ورجلٌ يدري ولا يدري أنّه يدري فذلك نائمٌ فأيقظوه، ورجلٌ

لا يدري ويدري أنّه لا يدري فذلك مسترشدٌ فعلّموه، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنّه لا يدري فذلك جاهلٌ فارفضوه". ضقتُ بكم ذرعاً، ألسنا على العهد إذا أُشكِل علينا أو غُرِّر بنا نحتكم من فورنا إلى ميدان الطعان والمنتصِر يكون قد نطق بأصدق المقال والمهزوم يكون قد نطق بالباطل أو المحال"؟.

وقال الراوي يا سادة يا كرام، ولا يطيب الكلام إلاّ بحضرة ذوي الأفهام، إنّ أبي العيناء سأل رجلاً عن دربِ الحمير؟، قال الرجل: "أدخلْ أيّ دربٍ شئت". يكذب مَنْ يقول إنّ الحضارة هي مُنتَجُ العنف، ولو ذلك صحيح لرأيتم الحمران، وأيديهم حوافر، قد سبقوا إلى القمر، وربّما هم يغتذون على الضوء ملتهمينه لا لا بالملعقة أو المغرفة بل بالشوكة والسكّين".

وخرج الأخوة الأعداء إلى ميدان الطعان، وتقاتلوا بالسيوف الحدب والرماح المكعّبة، وكان مبارَك أخْيَر بمواقع الطعن وأرشق، وأتتْ طعنةٌ منه في صدرِ أخيه مبروك، ثمّ فرغ لأخيه برَكة، وصارَ بينهما طعنٌ يقصف الأعمار، وشخصتْ لهما الأبصار، وتعاكستْ بينهما ضربتان وإذْ كلٌّ منهما يبري رقبةَ الآخر كما يبري الكاتبُ القلم.

ورأى الكبيرُ وسمع، وزفرَ وشهق، وقالَ كأنّه في تياترو: "دواءُ الدهر الصبرُ عليه، ماذا عندي في هذه الفانية؟، ما لي ثاغية ولا راغية" _ والثاغية هي النعجة والراغية هي الناقة _ ولو اتّجرتُ بالأكفان ما ماتَ أحد". وقبل إسدال الستارة إنهارَ على الأرض، ورفع يداً والدمع لا يكفّ عن خدّيه وقال: "ماتوا جميعاً، ليتَ واحداً منهم نجا لأعلم به ما ربّ لون اللّون الأبيض"؟!.

4 _ الفقيد أبو صابر.

وفي الفيلم أنّ أبا حطّاب صحا باكراً، ووجد أبا صابر نافقاً، وربطه بحبلٍ أغلظ من حبالِ الجمّالة إلى الثور الكبير نُجيم، وجرّه هكذا إلى وادي جهنّم حيث محرقة للقمامة، ولم يكن في تشييعه غير قطيع ذباب وسحابة غبار. وعصراً كانت أتان عند بركة ماء تمعط العشب، رأتها أوزّتان مهاجرتان هما "تمّ" و"مجوهرات"، حطّتا فجأة إلى جوارها وقالت لها تمّ بالطنّ والقيق والقاق: "يا إبنة الشقاق والنفاق، أينفق بعلك وتعملين أنّك لم تعلمي؟، لأخلاقُ الحمير أخلاق حمير". وقالت لها مجوهرات بالزبيط أو الزعيق: "واك واك" و"كيك كاك"، كيف لم تمشي في جنازة أبي صابر ولا حتى لوّحت له بمحرمة ذيلك"!. وهجمتا عليها تصفعانها بأجنحتهما وهي كلّما تفرّ وهما يتبعانها حتى قالت بالزفير والشهيق الذي هو عين النهيق: "انصرفا، ما شأنكما؟، أكان بعلاً لكما أم كان بعلي؟، لطالما شتموه وشتموني وضربوه وضربوني، وكم حرّضتُه لكي نفرّ، وكان ردّه إصبري يا أمّ صابر، وقبل موته ناداني يا أمّ زياد، وهي كنية جارتنا التي لم يكن يكفّ عن البصبصة عليها رغم إنكسار سيفه، وإذا لا تبتعدان أُقسِم أنّي سألبطكما وسأنعف ريشكما وأزلّطكما حتى أنتما نهباً، واللاّتِ والعزّى وذي الخلّصة، للثعالب والقطط والجرذان".

وفي اليوم التالي، وفيما كان كرٌّ يركض على غير هُدى ويقف فجأة ويرفس الهواء تجنّياً وإذ صحافيّ يسأله إذا هو من نسل أبي صابر؟، أجابه بالإيجاب، وسأل إذا مشى في جنازته؟، أجاب وقد استشعر تدخّلاً في شؤونه: "إسمعْ، كان أبي، وكان كرّاً وها أنا كرّ، وكان جحشاً وسأصير مثلما كان جحشاً، وصار حماراً عرمرميّاً، وسأصير، وخمسة بعيون الشيطان عزازيل، إذا إبتسم لي الحظّ وإمتدّ عمري، حماراً عرمرميّاً، أنا هو وهو أنا، وقيل له "حاااا"، وها هم يقولون لي "حاااا"، وقيل له "هششششش"، وها هم يقولون لي "هششششش"، وأنت أنجزتَ جميع

أمورك ولم يبق غير أن تنجز أموري؟، لو تبتعد أو سألبطك على أمّ نافخوك، فيتخلّص القاصي والداني من فضولك ومن أنفك الذي يبلغ أمتاراً.

وفي اليوم الثالث، وبينما عدد من قوم أبي صابر عند البيادر راقدين ينتظر كلّ منهم دوره لكي يحمل الغلال كالقمح والشعير والباقية والكرسّنة والتبن إلى الأهراءات والتبّانات، وإذْ واحد منهم يُدعى جحشون ينضمّ إليهم ويقول لهم بصوت ندّيّ _ طبقة عالية _ سوبرانو : "أنا ما عندي شكّ أنّ الكائنات في عجنٍ ولتّ، ولا شغل أو عمل لهم إلاّ دسّ أنوفهم أو خراطيمهم أو مناقيرهم في كلّ شاردة وواردة من شؤوننا. كنتُ ذاتي أحثّ الخطى لأنضمّ إلى مجلسكم الموقّر هذا حين استوقفني، قريباً من الماء، فيل قولوا شاحنة "سكستينْ وِيلْ" _ 16 دولاباً _ وقال لي بالرنيم: "يا أحطّ خلق الله، أينفق واحدٌ منكم ولا يشيّعه إلى مثواه الأخير سوى الغبار والذباب؟، أليس في جنسكم دمّ؟، قلْ لقومك الأشرار إنّ عيون الخلق حمراء منكم، وإذا لا تهتدون ولا تغادرون ضَلالكم لأنفينّكم من مملكتي كما نفى أفلاطون من مملكته قوماً ضالّين تبعهم الغاوون وهم الشعراء"، ولكشني، ودفعني في الهواء، ووقعت على الأرض، وقمت شبه محطّم، وغرابٌ في الجوار، ذاته الذي قبل أيّام أحرق كوخاً لفقير ظلماً وعدواناً، يقول لي بالنعيق: "قيق قاق، قل لقومك الفسّاق أن يسمعوا كلام سيّدنا الفيل وإلاّ فإن غربساننا وأغربتنا وغرابيبنا ستفقأ عيونكم بالمناقير وتشرّدكم في الآفاق كي تكونوا نهباً لكلّ ذي مخلب أو ناب".

وسمعوا، ووقف العكموس إبن النهّام حُمّير وقال بالهدير والصياح والشخير: "بالأمس، وبعد غياب الشمس، أسرعتُ إلى مرقدي لكي أنام، وإذ خفّاشان ضئيلان حقيران من جنس الخفافيش مصّاصة الدماء يهبطان إليّ من طاقة عند أعلى السقف ويجرحان عقباً لي، بعد تخديري، موضعيّاً، ويلعقان من دمّي ويشتمان أبي وأمّي لأنّي لم أمش في جنازة أبي صابر، وأحدهما يقول للآخر:

"لأكرعنّ من دمهم ما حييت". لماذا عليّ أن أمشي في جنازة من لم يكن يعترف بي؟، لماذا عليّ واجب أن أمشي في جنازة من رآني مرّة أحمل جبلاً على ظهري، ولا جبل إيفيريست، ولم يسألني أن يحمل عنّي ولو صخرة؟، ورآني مرّة مربوطاً، وإبن سيّدي يهمّ بي، ومرَّ من أمامنا عاملاً إنّه لا يرى؟، وذاته لطالما دافعني وزاحمني على الأتن والتبن؟.

وقال آخر يُدعى زُمال أبو فلوة المهر: "سمعتم ما سمعتم فاسمعوني، كان نسِر الجيف بالأمس عند كتف جبل شاهق وإذ الهواء ينبئه عن نافق في المسافة، طار إليه، وهو في عليائه رأى أبي حطّاب يكدّس الحطب على أبي صابر ويضرم النيران التي لم تنطفئ حتى سوّته رماداً. غضب النسِر وظلّ يلفّ ويدور في السماء قهراً أنّه لم يفز منّا ولو بفرمة لحم واحدة حتى لحقه قومه ولفّوا وداروا معه مطيّبين خاطره وحاثّينه بالصفير لكي يرجع معهم إلى عشّه ويستريح قبل أن يأخذه التعب ويسقط ويفكّ رقبته، ويا ليته لم يرجع معهم وسقط وفكّ رقبته. كيف أحزن لمن لم يحزن لي؟، كيف أبكي على من لم يبكي عليّ أو لي؟، وكيف أشتاق إلى من يوماً لم يسأل عنّي؟. وفجأة انتهى الفيلم وظهرت على الشاشة كلمة "يتبع".

5 _ من دون أدنى شكّ.

إستيقظَ مذعوراً وقامَ إلى الماء وشربَ سبعة ليترات وأشعلَ سيجارة، مفكّراً أنّ ما يراه في المنام كلّما يعاوده، فهو ذاته والي المحلّة يغدو الملك على محلاّت الناحية وتقرع الطبول وتعزف المزامير وينشد المنشدون ويغنّي المغنّون وترقص الراقصات ويرقص الراقصون، وفجأة هو يستعرض جنازة تتقدّمها وتتبعها قطعان من حمير الزرد بالخطوة العسكريّة السريعة. هل هو الوالي سيكون غداً الملك وبعد غد سينفق طبيعيّاً أو مغدوراً؟، حاول أن يعتقد بجزء من المنام وأن يتجاهل

الجزء الثاني ولكن هيهات. فالعلماء النفسانيّون سبق وقالوا كلمتهم التي لا جدال فيها وهي أن المنام هو كلٌّ واحد مهما اختلفتْ أو تنوّعتْ صوره وتعدّدتْ مفاصله، ولا يمكن بحال تجاهل هذه الحقيقة، ولكنّ الأجداد قالوا كلمتهم التي لا جدال فيها وهي أنّ العاقل هو الذي يجمع إلى عقله عقول الآخرين.

إستقرَّ، بعدما أشعل سيجارة ثانية، على إستدعاء وجهاء المحلّه ويسمع منهم، بعدما يقصّ عليهم، ولم يؤجّل، كما قيل ويُقال، عمل اليوم إلى الغدّ، على رغم أنّ الدنيا بعدُ منتصفَ الليل وقومه في سبات. مشى إلى النافذة التي تطلّ من دارته العالية على الناحية ورآها تحت ضوء القمر غارقة في السكون ولا مصباح واحداً في بيت أو كوخ أو شبروخ أو شربوخ أو خيمة يطلّ منه شعاع، ولا بدّ ممّا لا بدّ منه، زعق بعدما تفرّس بالمدى، بل قولوا نعق أو نهق، ولسان حاله يقول: "يا وجهاء المحلة إنهضوا من سباتكم، وإستعجلوا إليّ على بساط ريح أو بطائرة جامبو". وأعاد الكرّة، وكأنهم بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا، ورجع إلى الصياح بأعلى أعلى صوته، وما من جدوى. شخر ونخر وسبّ الشمس والقمر. هبّت الريح خفيفة ثمّ أقوى ثمّ عاصفة بالتوازي مع ارتفاع وتيرة صراخه المنكر، ونتّفت أوراق الشجر، ولسان حالها يقول وأعمار أهل الذوق تطول: "ألا تذوق؟، ألا تقول أنّ الناس نيام وفيهم أطفال وشيوخ وعجائز ومرضى"؟. واستمرّ مرّة يعوي أيضاً ومرّة ينبح، وأقبلت غيوم متّشحة بالسواد مستطلعةً ولسان حالها يقول: "يا أهل هذه المحلّة ما الذي يجري ها هنا؟، هل أصابكم مكروه"؟.. وفتح حنفيّة الزفير والشهيق الذي هو عين النهيق بلا حساب، وهبَّ بركانٌ قديم من سباته ونفث الدخان من فتحاته إنذاراً، ولمّا لا مَن يتّعظ أو يفهم شالق بالصخور والنيران، ولم يكفّ إلاّ بعدما سكنت الريح وجفّت السيول التي جرفت في طريقها إلى البحر كلّ بيت متصدّع لم ينهض على الصخر.

وإستيقظ الوجهاء، ومِنْ دون أن يغسلوا وجوههم أو ينشّوا الذبابَ الراقد عليهم هرعوا متدافعين من كلّ حدب وصوب، ودخلوا عليه واصطفّوا أمامه كيفما اتّفق على عادتهم التي لا شفاء منها، وكان أسنّهم، المدعو مُدَّر، قد تقصّد أن يقف في آخر الصفوف ملتهماً رأس ملفوف. ونظر إليهم الوالي تلك النظرة، وأخفضوا رؤوسَهم تلك الخفضة حتى كادت تلامس الأرض، زفر وشهق بالأنين، وقصّ عليهم، وسألهم إذا فيهم مَن له عِلم بالغد؟، لم يُجبه أحد، وإنجاداً للحال قال مُدَّر وهو يصفّي الحساب مع آخر ورقة ملفوف: "أنا يا عظَمَة الوالي".

ناداه الوالي أن يتقدّم الصفوف، وقال مشجّعاً: "لئن أحسنت التفسير لأهبنّك كيس قمح وآخر من الذرة الحمراء وثالثاً من الكرسنّة وصاعين من العدس وكيلة من الذرة البيضاء ومخلاة ملأى بالشعير، وختم: "هيّا الآن إنهق بما عندك". سأله مُدَّر أن يهبه الأمان فهو عجوز ويخاف أن تزلّ قدم لسانه فيستحقّ لبطة لا يحتملها بعدُ، وبعدما نال الأمان قال: "في المنام فجوات لا بدّ من ردمها، هل كانت الأنغام فرحة أم كانت ترحة؟". إستغربَ الوالي السؤال، فكيف هو الوالي وسيصير الملك وتُعزف بحضرته غير أنغام الفرَح؟، وإعتقدَ أنّ المسنّ يتجرّأ بمثل هذا السؤال، ولكن شاءَ أن يصبر وقال متجهّماً: "كانت فرِحة". شهقَ مُدّر كأنّما من هول مفاجأة وسأل كدِراً: "رأيتَ العرش والتاج والصولجان من خشب الإبنوس والذهب والأحجار الكريمة أم مِنَ القشّ مثل قشّ الشعير وغيرِه مِنَ النجيليّات"؟، وسمع الوالي وتجمّرت عيناه وطقطقتْ أسنانه، وقال لذات ذاته: "لا بدّ أنّه خرفان يستعجل حتفَه ناكشاً قبرَه بظلفِه، تاجٌ وعرش وصولجان مِنَ قشّ؟، تجاوزَ حدوده وعتبةَ المحرَّم، ولا بدّ للقائمين أن يهبّوا دفاعاً عن حقوقِ آلهتِهم، ونبحَه تلك النبحة وقال: "عدمتْكَ أمّك، هل أنت جاسوس؟، إعترف أيّها الجاسوس، لحساب مَنْ أنت تعمل؟، قشٌّ مثل قشّ الشعير وغيره مِنَ النجيليّات؟!، أنطقْ، أم أنّ الملفوف صار يذهب حتّى بعقل الفيلسوف، وكيف

إذا العقل هو عقل واحد خرفان مأفون مثلك؟، أنطقْ، لماذا أنت صامت؟، بلعتَ لسانَك"؟.

وشاءَ أن يسحبَ الأمانَ الذي وهبَه له وأن يلبطَه لبطةً قولوا هي نيزك، لكنّه وفي التكّة شاء أن يمدّ له حبل طغيانه لكي تزداد ذنوبُه ويأخذه بها مجتمِعةً أخْذَ القادِرِ الجبّار، وأخذ نفَسَاً عميقاً وقال مصطنِعاً أنّه ممسك بزمام الأمور ولا تفوته من العقلِ والحكمةِ ذرّة، فضلاً عن حفْظ العهد الذي قطعه على نفسه: "لا يا مُدّ ّر، لا مِنْ قشّ الشعير ولا مِنْ غيرِه من النجيليّات، بل مِنَ خشب الأبنوس والذهب الإبريز والماس الذي تبهر أنوارُه أنوارَ الشمس". ارتعد مُدّ ّر ممّا سمع وقالَ لذاته وهو كذلك من دون قدرة على ضبط أنفاسه المتشنّجة ويكاد يختنق ذعراً: "ويلي، أنا بواد وهو بواد والفقرُ والجهلُ والمرضُ يمسكون بأعناقِ العباد". وسألَه، وعيناه تندلقان إذا الجنازة كانت لحيّ أم لميّت؟!.

وكان الوالي يتوقّع مزيداً من شطط المسنّ ولكن لا يبدو أنّ لشطط مُدَّر ميناء أو مرسى، جنازة، ولحي أم ليْت؟، لا طاقة فيه بعدُ صبراً، إنتفخَ حتى هو منطاد، وانفجرَ كأنّه قنبلة ذريّة، وجعر وهو يقول وأعمار الذين يقولون "إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه": "جنازة ولحيّ؟!، باللهِ واللهِ وتاللهِ لأشوينّك، لأطعمنّك للتماسيح، لأنتفنّك، لأصلبنّك، لأرفعنّك على خازوق، تقول جنازة وتسأل إذا هي لميت أم لحيّ؟!، لا بأس أيّها الموتور، متْ بغيظك وإعلمْ أنَّ الجنازة، ويا لفرحتي وبهجتي وعظيم سعدي وسروري، كانت ليْت"!.

وسمعَ مُدَّر أنّ الجنازة كانت ليْت. طار ضبنُ عقله وارتعشت يداه وساقاه كعمل القصبات الرقيقات في الريح، وأخذتْه من بعدُ صاعقة، ودارتْ عيناه في محجريهما مثل مغزلَين، وتهاوى على الأرض دفعة واحدة، والوالي ينظر إليه ولا يفهم أي عفريت أزرق حلّ فيه حتى هو على ما هو عليه؟. ونظرَ إلى الوجهاء كأنّه

يستنجد بهم، ورآهم جميعاً وقوفاً نياماً. إنصرفَ عنهم إلى أسنّهم، لاحظ حركة في بطنه إنخفاضاً وصعوداً، علم أنّه لم ينفق، أمرَ الحاجبَ أن يستعجل بدلو ماء وقبضة غذاء، فهمَ الحاجب وعملَ الواجب، دلق الماء على رأسِ مُدَّر حتى إذا صحا حشرَ له في فمِه قبضةَ الغذاء، قضمَ ولعقَ قطرات كانت لا تزال تنزلق من رأسه، نهضَ وقالَ للوالي الذي ظهرَ فجأةً أنّه يبتسم ومستعدّ بأريحيّة ليسمعه : "موسيقى الفرَح للفرح وموسيقى الترح للترح، أمّا فرح لترح وترح لفرح فمن العلامات، أيّ فرَح أيّها الوالي ونحن أبداً في ترَح، وهذا يقول لنا "حاا" وذاك يقول لنا "هششّ"؟!، كيف التاج والعرش والصولجان مِنَ المعادن والحجارة؟!، هل يقتات جنسنا المعادن والحجارة؟، لو كانتْ قشّاً كنتَ أقلّه تعاملتَ معه والتهمتَ منه و التهمنا نحن أحبابك بالطريق معك، أم كان السابقون أعقل حين جَعلوا آلهتَهم مِنَ التمر، وعندما ضربتهم مجاعةٌ هبّت آلهتهم التمريّة وقدّمت أبدانَها قرابين لهم؟، ليتك تعلم أيّها المبجّل أنّ الميْت عن خلف عزيز، منيع، هو حيّ، وأنّ الميْت عن خلف خانع، ذليل، هو ميْت؟!، أمّا تأويل رؤياك فإنّنا، وفي هذا المكان، وقبل طلوع الفجر، سنكون جميعاً مِنَ الهالكين"!.

وتلاطمتْ الكلمة الأخيرة بالجدران واخترقتْ أسماعَ الوجهاء النيام. إستيقظوا وفتحوا أعينهم دفعة واحدة فزِعين، وصرخَ الأقطش، فهو بأذن واحدة، فيما الثانية التهمَها له إنسان بإهاب ذئب وقيل ذئب بإهاب إنسان: "هالكون؟!، ليتَني قبلَ مجيئي إلى هذا المكان أكلتُ أو إعتلفتُ فأموت شبعاناً". وصرخَ الأجرب، لإصابته بِالحكاك شهراً بالسنة من أثر رذاذ بودرة صفراء أُلقيت من الطائرات على شعب فقير للإستيلاء على ثرواته الطبيعيّة: "ليتَني أوصيتُ زوجتي أم تولب أن تمنع إبننا تولب من القمار ولو بالحديد والنار". وصاحَ المنتِن، وهذا لقبه بسبب قلّة إستحمامه على رغم حقّه بذلك ولو أقلّه مرّة في الأسبوع: "أرجوكم يا قومي دلّوني من أين الباب"؟!. ومِنْ فزعه لم يدر إلاّ وهو يلبط الأقطشَ الواقف

خلفه بالصدفةِ، والأخير سرعان ما فتح فمه وأطبقَه على رقبة زميلة زُمّال الذي كان يقف أمامه تحت مرمى أسنانِه مِنْ ألم اللبطة التي وقعتْ في خاصرتِه،.

واختلط الحابل بالنابل، وتعاركوا لكْماً وركْلاً، ومِنْ لا مكان طار حافر ولفّ ودار وحطّ في مطار أمّ وجه الوالي الذي جعر تلك الجعرة، وقيل بل نهق تلك النهقة التي من هولها اهتزَّ المكان وتساقط من السقف رمل إيذاناً بالتهاوي والسقوط على أمّهات رؤوس الجميع. إنتبهوا، وهم قلّما ينتبهون، إلى الخطر المحدق. انسحبوا من القتال وأسرعوا وأحاطوا بالوالي مطمئنّين ومستفسِرين. وتطلّعوا إلى بعضِهم بعضاً فإذْ هذا مفقوء العين وذاك مُبضَّع بالسكاكين وذيّاك مسبحةُ أسنانِه فارطة على الأرض، اندهشوا ممّا هم عليه، ساهين أنّهم كانوا للتوّ في حربٍ ولا داحس والغبراء أو حرب البسوس أو حرب اللصوص الكونيّة الأولى أو حرب اللصوص الكونيّة الثانية. وارتفعتْ همهمات ظنّها الأجرب مقدّمة لجولةِ تطاحن ثانية. صاح: "أرجوكم إعقلوا". وصاحَ المنتن: "ونعقل ماذا يا هذا"؟.

ووقف الوالي كأنّه ليصرفَ أجلاً، وأعطى الإشارة طلباً أن يُصغوا إليه، وهدّدَهم إذا لم يفعلوا أنه سيُسقط قنبلة ذريّة على أمّهات وآباء رؤوسِهم، واستصوبوا أن يكونوا كأنما على رؤوسهم الطير. قالَ: " أيّها الأخيار ، أيّها الأحرار، أيّها الأبرار، اسمعوا وعوا، ومن عاش مات ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، والبحرِ الأجاجِ المتلاطمِ الأمواج، والزجاجِ والأبراجِ والنعاجِ وأقفاصِ الدجاج إنّ شمسكم إلى انبلاج على البلاج، وإذا أنتهيت من كلمتي هذه أخرجوا من فوركم على رؤوس أصابعكم وبوجوهكم إلى دورِكم، وليعتلف كلّ منكم مِنْ معلفين، وليشرب مِنْ جرنين، وليتحزّم بنطاقين، وانهقوا والبطوا بمقدار ما تشاؤون، فليس على النهيق واللبيط عدٌّ وحساب، وتثاءبوا، وستنامون عميقاً بإطمئنان، وفجراً ستستيقظون، وستنسون تماماً كلَّ ما جرى في هذه الليلة المشؤومة _ المباركة، وستعيشون وستَرِثون وستُوَرّثون".

وخرجوا من فورهم، وقصدوا دورهم، وبما أوصاهم واليهم عملوا وقد حفظوه عن ظهر قلب، مثلما عمل مُدَّر والوالي ذاته من دون أدنى أدنى شكّ.

6 _ إذا إستوى وإذا إعوجّ.

قال مرجان: "ذُلّ مَنْ لا سيفَ له، وإذا كنتَ يا ميمون ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً. ماهيّة الريح قبضُ ريح، والشاعرُ قال: "أمّي ما ماتتْ جوعاً.. أمّي عاشتْ جوعانه". وأضاف أن عمرو رأى سعداً عند مغارة، وسأله فحكى كيف دخلَ إلى المغارة وكيف فيها حضارة شعارها: "مِنْ كلٍّ حسب طاقته ولكلٍّ حسب حاجته" ومَنْ يُضبط وقد أخفى فائضاً يكون عقابه الطرد، وكيف ذرفَ سعد دمعة بعدما قصَّ عن طمعِه وكيف حقّاً طردوه.

وسمع ميمون وغمز من محدّثه قائلاً: "جلسَ رجلٌ يأكل السمكَ والجبن وقال: كيف سيعلم السمكُ وهو ميْت أنّي أكلتُ الجبن"؟!. وأردف: "خرجتْ يدُ ابن الجصّاص مِنَ الفراش في ليلةٍ باردة، فأعادها إلى جسدِه بثقلِ النوم، فأيقظتْه، فقبضَ عليها بيدِه الأخرى وصاح: اللّصوص اللّصوص، هذا اللّص جاءَ ينازعني وقد قبضتُ عليه، أدركوني لئلاّ تكون في يدِه حديدة يضربني بها، فجاؤوا بالسراج، فوجدوه قد قبض بيدِه على يدِه". ألا ليتك يا مخّ البعوض تعرف ماذا تعني كلمة مُغرِض؟، والعالِم الحقّ لا يقول ما ليس بالشيء، إنّ ماهيّة الشيء هي شيء، والقبض على ريح شيء آخر، و"ماهيّة" فيها "ما" وفيها "هي"، وفيها غيرهما، و"ما" إسم موصول و"هي" ضمير منفصل و"التاء المربوطة" فلتانة، ويرعى بين جميعهم الغزال"!.

قالَ مرجان بعجب: "كلامُك يا ميمون لا سلطان فيه سوى سلطان الثرثرة، ومَنْ غربلَ الناسَ نخّلوه، ولكلِّ ساقِطة لاقِطة _ أي لكلِّ كلمة ساقِطة أذن لاقِطة _

وسألَ كأنّه في مناورة: "ما آفةُ الحديث"؟، قال مستغرِباً: "آفةُ الحديث الكذب"!. إبتسمَ مرجان وسأل: هل "ماهيّة الريح" جملة إسميّة"؟، قالَ: "نعم"!. سألَ: "وهل "ماهيّة" مُضاف والريح" مُضاف إليه"؟، قال: "أجل"!. سألَ: "والمُضاف والمُضاف إليه في محلّ رفع خبر للمبتدأ"؟، قال: "الكوفيّون والبصريّون مجمعون على ذلك"!. سأل: "هل يُقال: أحمق مِنْ لاطمِ الأرض بخدَّيه"؟، إستغرب السؤال أيضاً وقال: "ويُقال: أحمق مِنْ ناطحِ الصخر"!. سأل: "وهل تكون ريح مِن دِبر كما مِن مبعَر"؟. استشعرَ ميمون خطراً لا يعرف موضعه ولكنّه أجاب بالإيجاب وقال: "وتكون ريح مِن دبر كما مِن مِبعَر"!. سأل: "وهل ترى في كلامي خطأ"؟، قال: "لا"!. قالَ منتشياً: "وها أنت، بعضمة لسانك، تعترف، وبكامل صحوِكَ ووعيك، أنّي لا أنطق إلاّ بالحقّ". فهمَ ميمون أن الندَّ شجرة جذعها إستراتيجيّة وأغصانها تكتيك، يذرُّ المعلومات الصغيرة الصحيحة الكثيرة ذرّاً لكي يمرِّر كذبتَه الكبيرة بسهولة وإطمئنان، ولن ينجو سوى بهذه الحِيلة، وسأل فيما يوسّع عينيه: "ماذا تقول بكبيرنا المهراجا أبي زياد"؟. أحسَّ مرجان أنّ ميمون تعلّم منه بسرعة، أجاب: "أثبت في الدارِ مِنَ الجدار"!. سألَ: "وهل توافقني أن نحتكم إليه"؟، قال، وقد علم أنّه يفرّ منه: "سترى إذا انجلى الغبار.. أفرسٌ تحتك أم حمار".

وطارا إلى كبيرِهما وهو في خيمتِه، ألفياه جالساً تحت خيوط عنكبوت بين رأس غزال ومخّ ذئب وبراثن هدهد وشوك قنفذ ولسان تيس ومرارة غراب وفأر يتيم الأبوين وسلحفاة منقوش على ظهرِها تاريخ ميلادها وقارورة صغيرة فيها مِنْ شَعر قطّ أسود، وانبطحا وقاما، وسألهما، وأخيراً قالا: "قرأنا في المدرسة أنَّ الأمير فخر الدين الأوّل ذهبَ إلى السلطان سليم بعد معركة مرج دابق سنة 1516 وأقسمَ يمينَ الولاء، فخلعَ السلطان على الأمير اللبناني لقبَ سلطان البرّ، واليومَ يصحّحون على مهل هذه المعلومة في الكتب المدرَسيّة، لأنّ الأمير المذكور كان قد مات قبل معركة مرج دابق بعشر سنوات"، قالَ كبيرهما المهراجا كأنّما حسرةً :

"لا يريدون أن يلعبوا معه.. لأنّهم فقدوا حبَّهم له.. لقد رأوه وهو يغشّ.. ويخفي أوراقَ اللّعب.. تحت الطاولة"، ماذا الحرب سوى عين اللبيط؟!، لماذا يقولون "حرب مذهبيّة" عوض أن يقولوا "لبيط مذهبي"؟، ولماذا يقولون "حرب إثنيّة" عوض أن يقولوا "لبيط إثني"؟، ولماذا يقولون "حرب عالميّة" عوض أن يقولوا "لبيط عالمي"؟، بل لماذا يقولون "حرب النجوم" عوض أن يقولوا "لبيط النجوم"؟. واكتظّت السفينةُ بالنوارس المهيضة الأجنحة، وقام مجرمون وخرقوا السفينة خرْقاً لا علاج له، فغرقتْ ورقصتْ أسماكُ القرش مع النوارس المحطّمة، وإصطبغَ البحرُ باللّونِ الأحمرِ القاني، وقيل: "وقفَ بأبي العيناء الكفيف رجلٌ مِنَ العامّة، فأحسّ به، فقال: مَنْ هذا؟، قال: رجلٌ مِنْ بني آدم!، قال: مرحباً بك، أطالَ اللهُ بقاءَك، ما أظنُّ هذا النسل إلاّ قد انقطع". إرتعدتْ مفاصلُ مرجان وميمون وقالا بصوتٍ واحدٍ معاً، بعدما زفرا وشهقا على طريقتهما إستحساناً وتعظيماً: " ما أعلمك يا كبيرنا، لقد أشكلتْ علينا "ماهيّةُ الريح"، أهي الأجرُ المكسور الرِجل؟، أهي الفتى الحزين المملِق؟، أهي الأرق والقلق؟، أهي السباق الذي لا يكفّ ولا يلحق؟، أهي الريح على البلاط ولا أثر؟، أهي الريح لا تبقي ولا تذر؟. احمرّتْ عينا الكبير، أبرق، أرعد وأزبد كأنّه الصاعقة وأمّ رعيدة والرغوة معاً وقال: "هلا هلا، تعالا إلى حيثُ النكهة، أليس عندنا إذا أُشكِل علينا أو غُرِّر بنا لا يكون أمامنا سوى ميدان الطعان، والمنتصِر ينتصر قولُه معه والمهزوم ينهزِم قولُه معه؟، أنا لا أظنّكما من القوم الكفّار".

وقصدا إلى مَصرعيهما وتبارزا بالسيف والترس إلى غيابِ الشمس حين تعاكستْ بينهما ضربتان صائبتان وانشطرا إلى أربع قطع. وعلِمَ الكبيرُ وتأثّرَ وقالَ: "عطشَ أيلٌ، فأتى عينَ ماء ليشرب، نظرَ خيالَه في الماء وحزنَ مِنْ دقّةِ قوائمِه لكنّه إبتهج مِنْ قرونِه المتعالية وكِبَرِها، وحين خرجَ عليه الصيّادون في السهل لم يدركوه، لكنَّه حين دخلَ الجبالَ وعبَرَ بين الشجر لحقوه وقتلوه، فقالَ عند موته: أنا

المسكين لي الويل، فالذي ازدريتُ به خلّصني والذي رجوتُه أهلَكَني. ومرضَ غزال وجاءَ أصحابُه يعودونه ويأكلون العشب، ولمّا أفاق مِنْ مرضِه والتمسَ شيئاً ليأكلَه لم يجد، فهلك جوعاً. هكذا حظّي، فإذا استوى فسكِّين وإذا إعوجّ فمِنجل".

7 _ في المكان ذاته.

وضع الصُول أبو جحش يده بالقوّة الغاشمة على أراضٍ شاسعة تعجّ بالينابيع والسواقي والبحيرات والبرك، وزجّ أهله جميعاً في الأراضي المجاورة المأهولة كلّها بالرمل، والويلُ والثبورُ وعظائمُ الأمور لمن يجتاز ولو شبراً في أرضه، ولو فيه مسغبة يكاد ينفق منها. وفيما هو يتفقّد حدودَ أمارته أو مملكته أو إمبراطوريّته، بحسب ما يرغب أن يُسمّي ما يستبدّ به، ويبعِّر عامداً متعمّداً في عشٍّ أرضيٍّ لقبّرة، ويزفر ويشهق مصدِراً صوتاً ولا أنكر، لكي يقطع على حرذون مناجاته أو صلاته لجلالة الشمس، ويفقع قنبلة من دبره أو مبعره سيّان، تسميماً للهواء، وقعتْ عينُه بعين ذئب أغبر له أنياب أطول مِنْ رماح الرومان ومخالب أين منها خناجر الحشّاشين، ويلفّ ويدور، وكلّما يُضيِّق على الصول الدائرة، لكنّ الصول عظمه أزرق، يجيد الملاكمة، ولكْمَةٌ _ بوكس _ حافرٌ _ منه، ولو عشوائيّا، قولوا سيفجِّم وجه خصمه أو سيحطّم رأسه تحطيماً. تشبّثَ بمكانه، وشرع بالدوران حول ذاته مثل عقرب الساعة، وعينه بعين غريمه الذي بدا أنّه كلّما يتمهّل، وصار مثله يتمهّل، ناقراً الأرض نقرات ذات معاني ودلالات، تشجيعاً أن لا يجرِّب حظّه محتكّاً به، ويبتعد عن المكان أو يختفي منه تماماً.

فجأة توقّف الذئبُ عن اللفّ والدوران مستشيراً عقلَه إذا يكرّ أو يفرّ؟، سمعَه عقلُه جيّداً وقال مستخفّاً: "تذكّرتني لتستشيرني أخيراً؟، أعماكَ مُرُّ جوعِك عن

خطر ما أنت فيه مذعناً لديدان بطنِك التي أشارت عليك بسخافتك؟، أنظرْ، إنّه وحش، وأحلفُ بمناة وطاغوت وذو الشرى وعوض ودوار ونسِر وعائم وجلسد وأبغال والفلس والأقيصر إذا لكمك أو لبطك وأصابَك على أمّ نافوخك قلْ حطّمَك وحطّمني بالطريق معك، يا هداك المعبود هُبل خذْه بالحيلة، والحربُ حيلة، وحين توافيك فرصة لا يخرّ منها الماء لا تتأخّر وانقضّ، وهو من بعدُ ألف صحّة وعافية على بدنك وقلبك، ولكن إنتبه: عجِّلْ ولا تستعجلْ".

إرتاحَ الذئبُ لمشورةِ عقلِه. رمى ستارةً وغطّى بها رماحه وأعادَ خناجرَه إلى مغامده، وقولوا كأنّما جمع ذيلَه إلى ساقيه وفتحَ حنفيّات مياه سريّة وأطفأَ بها نيران عينيه وسالت قطراتٌ على خدّيه، وبدا كأنّه يبكي مثل حَمَل فقد في الزحمة أمّه. رآه أبو جحش على حال هي غير تلك التي للتوّ كان عليها، أخذَه العجب العجاب ورقّ، وعلى الرغم قالَ مظهراً القسوة: "أيّها الكلب ماذا تفعل ها هنا؟، قلْ وإلاّ سأنزل بصخرةٍ على أمّ وأب رأسك"، قال بالثغاء لا بالعواء: " أنا عبدٌ لك، تاهت بي السبل ورمتْني بجوارك، رأتْكَ عيناي ولم أصدّقهما، فركتُ آذانهما حتى لا تغشّاني، لكنّهما أقسمتا باللاّت وعزّة أنّ أنتَ حقّاً هو أنت، عدوتُ نحوك وغزلتُ كالمغزل حولك، وها أنت هو أنت وليس أحد غيرك، وصفوا لي جمالك وها أنا أراك، ما أحلاك وما أبهاك، وسمعتُ عن كنوز وبحارِ عقلك وعلومِك ومَبلغِك في صراعِ الحضارات ونهايةِ التاريخ والضرباتِ الإجهاضيّة أو الإستباقيّة أو الوقائيّة، وما هو الفارق بين الكوزموبوليتيّة والعولمة وبينهما وبين الأمميّة؟، وأنا ألتمسُ، يا من ليس مثلك، أن أتعلّمَ عليك مِنْ كلّ ذلك".

إبتسمَ أحمر الحمير أبو جحش، الصول، لكنّه أظهر الغضب على حين غرّة وقال مهدّداً: "قلْ وإلاّ نتّفتك، أنت طالب عِلم أم طالب لحم"؟. يكذب مَنْ يدّعي أنّ الذئب لمّا سمعَ ما سمع لم يزرق، حمار ويسأل؟، لا بدّ أنّه شيطان متنكّر، وحتماً سيخبص لحمه بعظمه. رجع إلى عقله الذي لم تنطل عليه حيلة الخصم،

وشجّعَه قائلاً: "لا تخشاه، فهو إذا لديه سؤال أو سؤالين وحتى ثلاثة فإنّك سيّد أسياد الأسئلة، وعندك ألف ألف سؤال أهم وأخطر، أين النقّيفة من المدفع الرشّاس والمنجنيق مِنَ الصاروخ العابر للقارّات والمحيطات؟، كرّ يا أبا سرحال بالحيلة وأنت حرّ ". وكرَّ أبو سرحال وقال: "ليتني أفقد أمّي وأبي يا حضرتك إذا بحضرتِك يزلّ قدم لساني، أنتَ أعلم أنّي نشأتُ على اللّحم الفاتك بالجسم، ولكنّي اهتديتُ أخيراً إلى العشب الذي هو للجسم بلسم، أنظرْ، وأنت خير من ينظر، ولا مولى لي غيرك، إذا يبلغ حجمي ثلثك بغير أنّك مفطور على الحقّ وأنا اهتديتُ إليه متأخّراً"؟. ولمحَ غيوماً تحتشد في السماء وقال: "والغيومِ التي في السماء أنا طالب عِلم وليس غير العِلم". التفتَ الصول بعينٍ صوب السماء فيما الثانية، وكأنّه حرباء، جعلها لا تفارق الذئب، ورأى الغيوم في السماء، واتّخذَ من ذلك دليلاً على صدق محدّثه. سارعَ إلى الإبتسام وقال: "أنا يا صديقي أمزح، لا تأخذ على خاطرك ولا تشغل بالك". قالَ الذئبُ لعقله: "ما هو رأيك"؟، قال عقله: "تابع، فالسمكة تقترب مِنَ الطعم الطيّب". قالَ الذئبُ للصول: "لا شكّ عندي أنّك لا تزال، يا جلالتك، على ريق بطنِك بسبب من مشاغلك في سبيل إمبراطوريّتك، فما هو رأيك يا دام ظلّك لو نقضي بعض الوقت بالتسلية ونتصارع حبيّاً، لا أنت تلبطني ولا أنا أفعل مثلك، نتدافع فقط، ومَنْ يقع أرضاً أوّلاً يكون هو المهزوم، وأنا حتماً سأكون المهزوم، فما مقداري إلى عظيم شأنك، وسأنهضُ فيما ترقد مستريحاً وأذهبُ وأعود محمّلاً بأشهى ما يطلبه بطنُك، وتأكل ما أجمع وحدك، وأمّا من جهتي فلن أتناول لقمة، فمِنْ خيرِك، وقبل لقائي بك وتشرّفي بحضرتك التهمتُ خيشةَ تبن وليس بعدُ في بطني محلّ لضلع عشبة واحدة"؟.

قالَ الصول لذاته: "ما أسعدني وأحسن طالعي، إنّه ذئب ملاك، لأقعنّ له ولأُعلنَنَّه منتصِراً، وسأحثّه على لزوم مكانِه، وسأذهب وأعود بما يرغب، وأحلف

بأساف ونائلة أن يأكل حشو بطنه الضامر، وسأتّخذه نديماً ما حييت، يا يعوق ويا يغوث ما أطهر ذيله، هو ضيفي ويعمل أنّي أنا ضيفه"!. وقال: "إذا تريد أيّها الملاك أن تلهو فأنت في حضرة خير مَنْ تهوى كلّ الكائنات أن تلهو معه، هيّا بنا إلى المصارعة الحبيّة". قالَ عقلُ الذئب لصاحبِه: "إجذبِ الخيط، بلغتِ الصنّارةُ بطنَ السمكة". وفيما الصول يُعطيه قفاه بحسب الخطّة التي إخطتَّها أنشبَ الذئبُ أنيابَه ومخالبَه وقفز عالياً إليه، وبالتكّة ضجّت السماءُ بالبرق والرعد المُفزِعين كأنّما لن تبرق ولن ترعد بعد اليوم أبداً، ذُعِر الصول وطيّر بقدميه صخرتين أصابتا بطن الذئب ناشباً، ومن عزم اللّطمة طارَ عموديّاً كما في الصور المتحرِّكة، وبسرعة نيزك، واخترقَ الغيومَ السود، وبلغَ نقطةً ممنوع عليه أن يتجاوزَها. هبّتِ الجاذبيّةُ الأرضيّة، أمسكتْه وجذبَتْه، سقطَ ودبعَ على الأرض محدثاً حفرةً استقرَّ فيها فاقداً الوعي، ولمّا فتحَ عينيه فيما المطر ينهمر رأى ما تمنّى لو مات ولم تنفتحا، رأى الصول واقفاً عندَ رأسه ويلاكم السماء، ظنَّه الأبجر حصان الفارس المغوار عنتر أو الأخرج حصان البطل الزير سالم أبي ليلى المهلهل وأنّه مِنْ شاهِق يريد أن ينقضّ ويعجنه خالطاً لحمه بعظمه، صاح كأنّه أبو صيّاح: "الدجاجةُ سوداء والديكُ شحبَر، إنّي في يومي الأغبر، جئتُ طالباً وها أنا المطلوب"!.

وكأنّه رفّاص مضغوط وارتفع عنه الضغط أو كأنّه عصفور في قفص وانفتح باب القفص أو كأنّه صاروخ على أهبةِ الإنطلاق إلى عمق المجرّة وقيل: "ثلاثة، إثنان، واحد"، قفزَ أو طارَ أو فرّ أو إنطلق، وكان أبو جحش يناديه أن يرجع أخاً عزيزاً، مؤكّداً أنّه لم يقصد، وأنّه فاجأه البرق والرعد فأجفل، وبدر منه ما بدر من غير قصد. لم يسمعه الذئب. ظلّ يعدو حتى بلغَ صخرةً إرتمى خلفَها وهو على آخر نفس. وظلّ هكذا مرتمياً خلف الصخرة حتى شعرَ بعافية وتأكّد أن الملعون لا يتبعه. وقف يلعق مواجعَه ويتفّ على الأرض كلّما علقتْ شعرةٌ بلسانِه كأنّما يتفّ

على حاله. وهو يريد أن يمضي بعيداً عن المكان المشؤوم وعازماً في آن ألاّ يدعس فيه بعدُ ولو فرّموه رأس عصفور أو عملوه كفتة أو كبّة وإذِ المدعو صدى مقبل لاهثاً مِنْ سفر فيه مشقّة ومبعوثاً رسولاً حاملاً رسالة صوتيّة مِنْ زوجتِه أم سرحال تقول له فيها: "سلام الإشتياق لك يا حبيبي وضي عيني يا أبا سرحال، أعلمكَ أنّ الحال ليست بعدُ هي الحال، أنا منذ ثلاثة أيّام لم تدخل بطني لقمة، جفّ حليبي يا بعلي، جراؤك يفنون، لا أستطيع أن أغادر الوكرَ طلباً للرزق مخافة أن تستفردهم الوحوش، الدنيا غابة يا سبعي، إرجعْ إلينا يا أبا سرحال سالماً غانماً هذا المساء كآخر مهلة، وبعدها لا تلمني فلا خيار، سأخرج من الوجار مع ما في ذلك مِنْ الخطر الذي تعلم، الجوعُ كافر يا أبا سرحال، إسمعْ أنين سرحال وسرحان والخلبع والخولع والعملس وذؤالة، النجدة يا أبا سرحال النجدة، يا حبيبي يا أبا عيالي النجدة، النجدة النجدة، النجدة النجدة".

وجرت الدموع على خدّي أبي سرحال سيولاً مِنْ شدّة ألم ضيقِ ذاتِ اليد حتى هبَّ عقلُه وقال: "يا حيفي، وودّ وسواع، لو لا أعرفك منذُ نشأتِك لأنكرتُ أن تكون أنت أنت، أتبكي كالأطفال؟، وأوزوريس وإيزيس لو علِمَ عالِمُ الإحياء التطوّري الجليل داروين بأمرك لأمسك كتابه أصل الأنواع ورماه علفاً للعنز، أنتَ خسرتَ جولة لا الحرب، أليس لكَ أصدقاء صدَقتَهم وصدَقوك ونجَدْتَهم ونجدوك وعويت لهم لا عليهم؟، إعوِ عواء الإستنجاد وأنظرْ ماذا سيكون مِنْهم.

إرتقى أبو سرحال الصخرة وعوى مِنْ فؤادٍ مكلومٍ عواء الإستنجاد، هبّ صدى هبوب الكريم لنجدة أخيه الكريم وطار بالعواء مجتازاً جبالاً وغابات وقفاراً حتى إستقرّ في مسامع عصبة مِنَ الذئاب الصناديد الذين ليس فيهم خؤون أو رعديد. قالَ الفتى أبو جعدة: "إنّه حبيبنا أبو سرحال، والخبزِ والملحِ الذي بيننا لن يدري إلاّ ونحن عنده".

طاروا إليه طيرة نَسِر واحد ولم يدرِ إلاّ وهم حقّاً عنده. احتضنَهم واحتضنوه، بوّسَهم وبوّسوه، وأنبأهم بالخبر اليقين، وقال مضيفاً: "واللعين لا بدّ هو الآن يعمل ما يليق به ويروق له ويطحن بحجارة أسنانِه كلَّ يانع أو يجلد بسوطه الذباب الضعيف الذي من بخله وقلّة إستحمامه توفيراً يقتات على بعضِ بعضِ بعضِه". ثارتْ ثائرةُ الذئاب، وقالَ الأويس لأبي سرحال، وسط غضب العملس والأطلس والأصمع والعوف والأوس والقطرب والقلاّب، فيما الشرر يتطاير مِنْ عينيه: "وذمّتِنا هو ديكتاتور، ولا بدّ أن نضعَ له حدّاً جاعلين منه عبرة لمَنْ يعتبر". وانطلقوا يقودُهم أبو سرحال، وأشرفوا من مرتفع، ورأوه لا يزال في مكانه ولا على باله ويعمل عين ما سمعوا عنه. حاصروه، كرّوا عليه وفرّوا منه، خابطَهم ولابطَهم، ولمّا شعرَ بوهنٍ يتسلّل إليه طلبَ النجدةَ بالصياح والهدير من أهله الذين هم مِنْ شدّةِ الجوع والعطش الذي يعصف بهم لم ينجدوه، وعندما تخضّب جسمه بالدمّ إنهدّ ونخّ، وأسرعوا وتراكموا عليه وأوسعوه طعناً حتى إذا أخرج لسانَه عضّه ولفظَ آخرَ أنفاسه. وتوزّعوه فيما بينهم حصصاً، وقبل الرجوع إلى مواطنهم حيث عائلاتهم وأحبّتهم وصغارهم حاملين منه إليهم تبرّزوا منه مثلما تبرّز آباءٌ وأجدادٌ لهم من آباءٍ وأجدادٍ له، وأين؟، في هذا المكان ذاته.

(8) بأسنّةِ الرماح.

قالَ الراوي أخيراً: يا سادة يا كرام، لا يطيب الكلام إلاّ بحضرة ذوي الأفهام: "ثمّ بالتْ بينهم الثعالب _ وهذا المثَل يُقال في القوم يقع بينهم الفساد _ لم تكن عنصريّة إلى أن صارَ هذا منه روْثٌ وذاك منه بعرٌ وذيّاك منه سرجين.. إلخ، عِلماً أنّ المصدرَ هو واحد ولو مرّة يسمّونه المِبعَر ومرّة يسمّونه الدبر، وكانوا يتكافلون حتى وقعتْ واقعةٌ وصارَ الدولار والدينار والإسترليني والينّ والفرنك والريال

والروبيّة واللّيرة والروبل والرند والكروني واليان والوان والبيسو والكرونا والدرهم والبات والمنات وقرون أخرى، غير أنّ البعض أحسّ بالعار الذي يحصد كالطاعون والجدري والكوليرا والتيفوس والأنفلوانزا والأيدز والتهاب الكبد والتهاب السحايا والنكاف وحمى الضنك والحمّى الصفراء والهواء الأصفر والموت الأسود، فجمعَوا قرونَهم وجعلوها قرناً واحداً بإسمين: الأوّل هو "يورو"، والثاني سرّي، ولكن يُشاع ويملأ الأسماع أنّه "فوهرر".

وفي يومٍ إعتلى المنبرَ الأميرُ أَحْمِرَة وقالَ بلسانِ القعقعة _ لسان السيوف _ وقيل بلسانِ الصرصرة _ لسان البازيّ _ وقيل بلسانِ السجير _ لسان النار: كم تلدغُ العقربُ وتصيءُّ _ وصاءَ الفأرُ والعقربُ والخنزير وما شابه: صاحَ، وهو مثَل يُضرَب للظالِم الذي يتظلّم _ إنَّ الربَّ معنا _ سادتْ هذه العبارة بين جنود بسمارك وهتلر لتبرير الإنتصار بقوّة الحديد والنار _ نحن نُكمِلُ صنيعةَ الربّ _ سادتْ هذه العبارة بين الفرنسيين منذُ حروب الفِرنجة حتى الغزوات الإستعماريّة _ لدينا رسالة حضارة _ انتشرت هذه العبارة على ألسنة منشئي التمييز العنصري _ لا يُندَب للأمرِ العظيم إلاّ مَنْ يقوم به ويصلح له، ولا يُجمَع سيفان في غمدٍ واحد. المراعي والمعالف والبرك والأجرانُ لي، أنا أجرأُ مِنْ أسامة _ أسامة إسمُ الأسد معرّف لا تدخله أل التعريف _ أنا أبقى مِنْ وحي في حجَر _ قيل أنَّ أهل اليمن كتبوا الحكمةَ في الحجارة طلباً لبقائها _ أنا أبلغ مِنْ قُسّ _ هو قُسّ بن ساعدة الذي يُضرَب به المثل في الفصاحةِ والخطابة، وكان مِنْ حكماء العرب، وهو أوّل مَنْ قال: أمّا بعد وأوّل مَنْ قال: البيّنةُ على مَن إدّعى واليمينُ على مَنْ أنكر _ أنا إبنُ جلاّ _ جَلا الأمورَ وكشفَها _ أنا أبهى مِنَ القمرين _ الشمس والقمر _ أنا آكَلُ مِنْ الحوت وأبصَرُ مِنَ الوطواطِ بالليل. و"يُروى أنَّ العرب زعمتْ أنَّ حيّةً كانت تعيش في سقفِ بيتِ أحدهم فقتلتْه، عندئذ أخذَ أخوه يتحيّن فرصةً تمكّنُه مِنْ قتلِها ليثأرَ أخاه، فأرادتِ الحيّةُ أن تسالمَ صاحبَ البيت، فقالتْ:

"هلمّ نتصالح وأنا أقدِّمُ لكَ عن مصالحتِنا كلَّ طالع شمسٍ ديناراً"، فوافقَها، فلمّا إغتنى وزادَ مالُه هاجَ في قلبِه وأفكارِه ذِكْرُ أخيه، فهمَّ أنْ يثأرَ مِنَ الحيّة، فهيّأ فأساً وإستعدّ لقتلِها، وراقبَ مجيئها، فضربَها بالفأسِ، فقطعَ ذنبَها، فانسلّتْ واختبأتْ، فتأسّفَ لأنّه لم يثأر، فندمَ وطلبَ مِنَ الحيّة المصالحةَ، فقالت: "لا يمكن أن يتمّ صلحٌ بيننا ما دمتَ ترى قبرَ أخيكَ وتذكره، وما زلتُ أنا أرى أثر ضربة فأسِك في ذنَبِي". وأنشد يقول: "يقول الزيرُ قهّار الأعادي.. أنا السبع الجسور بكلّ وادي.. غداً لا بدّ أمشي للقاهم.. وأحصد جمعهم يوم الجلاد.. وآخذ ثأرنا مِنْ آل بكر.. وأطفئ النار مِنْ طيّ الفؤاد. يقولُ الزير أبو ليلى المهلهل.. وقلب الزير قاسي ما يلينا.. فدوسي يا يمامة فوق رأسي.. على شاشي إذا كنّا نسينا.. فإن دارتْ رحانا مع رحاهم.. طحنّاهم وكنّا الطاحنينا".

وتسلّل المدعو صدى مِنْ بينِ الجموع التي تصدِّق، وبوجهه إلى الأمير حُمُرَات الذي لا شيء مِنْ قبح المنظر إلاّ وهو آخذ منه بنصيب، ويغضبُ له إذا غضبَ مليونُ سيف لا يسألونه في ما غضب، وسمع مِنْ صدى وشخرَ ونخرَ وضربَ الأرضَ بقدمِه وتأخّر وأعطاه كيسَ ذهب، فأخذَه صدى من دون أن يحظى بشرف المصافحة وقد مدَّ يدَاً إليها. وسُئلَ الأمير حُمُرات عن السرّ، مع أنّ العميل صدى هو عميل مُجرَّب ونشيط، قالَ، وهو يعلّق طوقاً مِنَ الألياف النباتيّة حولَ عنقه فيما حذاء وقطعة جلديّة يتدلّيان على صدره: "كان ضابط نمساويّ قد أطلعَ نابليون بونابرت على معلوماتٍ أكسبتْه المعركة، وفيما نابليون ممتطياً جواده رمى له صرّةَ ذهبٍ وقال: خذها هي لك، قالَ الضابطُ النمساويّ بعدما إلتقطها: وبي رغبة أن أتشرّفَ بمصافحةِ الإمبراطور. قال نابليون: لأمثالِك الذهب، أمّا يدي فلا تصافح مَنْ يخون بلادَه". ونادى أن تحضر عساكره على أجنحة السرعة وتصطفّ أمامه، واحتشدَ أكثر من مليون حافر ونصف مليون منظار ليليّ ونصف مليون جهاز إشارة أو إستشعار وربع مليون مزمار وزمّور

خطر وربع مليون مدفع مِنَ الأحجام كافّة وكلّها أين منها مدافع نافارون، وربع مليون من السياط وعشرات الملايين مِنَ الأسنان.

وصعدَ الأمير حُمُرات إلى المنبر وقالَ بعدما أصلحَ حالَه: مَنِ إستبقاكَ ما عرّضَك للأسد، وجِلْدُ الخنزير لا يُدبَغ _ ويُقال هذا المثل لمن لا يحيك فيه النصح _ وجاءَ في صحفٍ أنَّ شاعراً مجونيّاً رأى غريماً في أحد المجالس له لحية بيضاء وشَعر رأس أسود، فسأله مداعباً: "هل تعلم لماذا لحيتك بيضاء وشَعر رأسِك أسود"؟، قال: "لا"!، قال: "لأنّ فكّيك يشتغلان أكثر مِنْ صدغيك". بلغَ السكّينُ العظمَ _ يُضرَب لما جاوزَ الحدَّ _ أحمِرة ناشرٌ أذنيه _ طامع دكتاتور _ يزعم أنَّ المخالي والحياصات والمعالف وبرك الماء والأجران والبرادع والمراعي هي له وهي ليست لي، إنّه يُطيّن عينَ الشمس _ يستر الحقّ الجلي الواضح _ إنْ سلِمتَ مِنَ الأسد فلا تطمعنّ في صيدِه، حديثُه حديثُ خُرافة _ وخُرافة هو رجلٌ حدّثَ بما رأى مِنْ جنّ فكذّبَه أهلُه _ إنّه أتْيَه مِنْ قوم موسى وأجرد مِنْ صلعة، وماذا عساه يبلغ عضُّ النمل. وقيلَ لمزبّد وقد إشترى حماراً: "ما في هذا الحمار عيب إلاّ أنّه ناقص النفس، بليد، يحتاج إلى عصا". قال: "إنّما كنتُ أغتمّ لو كان يحتاج إلى بزماورد _ طعام مِنْ بيض ولحم _ فأمّا العصا فإنّها سهل". أنا منيعُ الجار حامي الذمار _ رمز الشجاعة _ أنا سيّدُ قومي وخطيبُهم _ سيّد اللّسان _ أنا ملجأ قومي وربيعُهم _ علَم السماحة المرتفِع والمرفرف _ بلغني أنّ أحمِرة يستعدّ للحرب، وقيل: غزالٌ هربَ مِنَ الناس، فجاءه الأسد وإفترسَه داخل المغارة قائلاً: "وقعتَ في يد مَنْ هو أشدّ منهم"، ويتباهى أنّ جيشَه أكثر غباراً مِنْ جيشي ولا يعقل قولَهم: أرنب قالَ للبوءة متباهياً: "أنا ألِد كلّ سنة أولاداً كثيرين"، قالتِ اللبوءةُ: "صدقتَ غير أنَّ واحداً ألِده أنا فهو سبع". وأنشدَ الأمير حُمُرات عن أبي الفوارس عنتر: "سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي.. وما فعلا في يومِ حربِ الأعاجم.. فإن عابوا سوادي عند ذكري.. وجاروا مِنْ عناد في ملامي.. فلي قلبٌ أشدّ مِنَ الرواسي.. ولوني مثل

لون المسكِ نامِ.. وما أسمو بلونِ الجلدِ يوماً.. ولكنْ بالشجاعةِ والكلام"، وفيما كان يغادر المنبر على إيقاع التصفيق والزغاريد والأهازيج والرصاص قال لذاته: "هناك شيء ما فاسد في مملكةِ سيلينا".

وفي يومٍ صائف _ من صيف _ إصطفَّ الفريقان، وبدأتْ مبارزةُ الفرسان، وطلبَ أبو قشّة السعدان خصمَه الذئب ذؤالة الذولان، وقبل أن يتمّ كلامَه وجدَ ذؤالة يقف قدّامَه ويصدمه صدمةً هائلةً ويضربه بسيفِه البتّار على مفرق شعرِه ويقسمه قسمين من رأسه إلى العصعص _ عجب الذنب _ آخر جزء في العمود الفقري. وبرزَ نملُ اللّهب وطلبَ نملَ الحصاد، ولم يزالا في أخذٍ وردّ وقربٍ وبُعْد حتى أخيراً طعنَ نملُ اللّهب خصمَه بالرمح في صدرِه وطلعَ يلمع مِنْ ظهره، ونظرَ نحو الأعداء وكرَّ عليهم وهو يصيح: "أتاكم الفتى نملُ اللّهب"، فتبعه قومُه، فصاحَ الأمير أحمِرة بعساكرِه: "خذوهم بأسنّةِ الرماح". والتقتِ الأبطالُ بالأبطال وجرى الدمّ وسال وتقطّعتِ الأوصال حتى المساء حين إفترقوا. وفي الصباح إصطفّ الفريقان، وبرزَ الصوصُ _ فرخ الدجاج _ وطلبَ الفصيلَ _ ولد الناقة بعد فطامه _ الذي إلتقاه بقلبٍ أقوى مِنْ صخرِ الصوّان وقال: "لم أستطع ترْك الدخّان فأفطرتُ في رمضان"، قالَ الصوص: "مَنْ أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلْنا"، وأنشدَ الفصيلُ عنِ الأمير كليب: "يقول كليب قاهر الأعادي.. كلاماً أشدّ مِنْ ضرب الهنادِ.. فلستُ براجع عنْ قطع رأسك.. ولو ملّكتَني كلّ البوادي". وضربَه بالسيف، فتلقّى الصوصُ الضربةَ بالدرقة، فنزلتْ على رقبة الجواد، فقطعتْها، خافَ الصوصُ وإستجارَ فأُجير وأُطلق سراحه. ومِنْ دون دعوة برزَ الفهد صاحب المكرِ والكيد وصدَمَ الفصيلَ صدمةً جبّارةً ردّتْه إلى الوراء، وسحبَ الفصيلُ الدبّوسَ وضربَ الفهدَ فأصابَ رأسَه وطيّرَ أضراسَه وأوقعَه على الأرض، وأسرعَ قومُه وخلّصوه. وبرزَ الضبع أبو كلدة _ وهو ضبعان ذاته زوج ضبعانة أم كلدة نبّاشة القبور لكثرة شهوتها للحوم بني آدم _ وصالَ وجالَ ولعبَ برمحِه العسّال

وحيّرَ عقولَ الرجال وطلبَ مبارزة الدجّال منتحل الصِفَة _ والدجّال الأصلي هو ذاك الأعور في عينه اليمنى والذي يُروى أنّه سيظهر في آخر الزمان وسيقتله الرسول عيسى إبن مريم عليه ألف الصلاة والسلام _ وتجادلا بالسيف والترس حتى ضربَه الضبع ضربةَ جبّار بالفأس على أمِّ رأسِه، فوقعَ على الأرض مع جوادِه أربع قطع. جنّ الشيطانُ _ الملاك الساقط الشرّير _ ذاته لوسيفر وإبليس وبعلزبول ذي القرون _ وذاته المتلوّن مرّة بالأسود ومرّة بالأحمر ومرّة بالأزرق _ لمّا رأى ما حلّ بأخيه الدجّال. أرادَ أنْ ينتقم. صدَم الضبعَ صدمةً قويّة. التقاه الضبع بصدمةٍ أقوى. تجادلا وتضاربا. رجحَت كفّة الضبع، خافَ الشيطان وإنسحبَ مِنَ الميدان بخفّةِ الغزلان. وصارتِ الفرسان تنزل إلى الضبع وهو يجندل الجميع في الحربِ والطعان حتى برز الضفدع المدعو السهم السامّ جاحظ العينين، وطلب مبارزة العقربيّ البحريّ القدّ، وقالَ: "مَنْ صنعَ نفسَه هو عصاميّ"، قال القدّ: "ومَنْ نسبه إلى عظام هو عظاميّ". إنتفخَ الضفدعُ وقال: "إستأنسَ الحمارُ للمذلّة وأدركَه الذبابُ حتى إستخراه وإلتصقَ به إلتصاق الغراء بالشَعر ولم يعد يفارق لا بطنه ولا ظهره ولا وجهه ولا عنقه ولا قفاه"، قالَ القدّ وهو ينشب على أخمصيه: "أخافَ سخاءُ الشمس أشراراً تحالفوا مع الليل وإقتحموا بكلّ خِسّةٍ ونذالةٍ قبائل وشعوباً ومحوها محواً عن وجه الأرض". وهجمَ على الضفدع، وإحتارتْ مِنْ قتالِهما عساكرُ الفريقين، أخيراً يئسَ القدّ مِنْ تحقيق النصر وقالَ: "أريدُ أن ألقي سلاحي فهل تعطيني الأمان"؟، قال الضفدع: "هو لك". وبرزَ أنوبس إبنُ آوى شاهراً سيفَه الصمصام، كافحَه الضفدع وأتعبَه وضربَه بالسيف ضربةً صائبةً جزَّ بها عنقَه. وبرزَ العجل إبن الفرقد، وبرزَ ماتادور إبن سهيل مناجزاً بكلامٍ كالدرّ النضيد عن لسان الفارس الصنديد والبطل العنيد الزير سالم قائلاً: "كليب لا خيرَ في الدنيا وما فيها.. إنْ أنتَ خلّيتَها مَنْ يبقى واليها.. أضحتْ منازل بالخلاّن قد درستْ.. تبكي كليباً نهاراً مع لياليها..

غدرَكَ جسّاس يا عزّي ويا سندي.. وليس جسّاس مَنْ يحتسب تواليها.. لا أصلحَ الله هَناء مَنْ يصالحهم.. حتى يصالح ذئبُ المعز راعيها.. وتحلب الشاةُ مِنْ أسنانها لبناً.. وتسرع النوقُ لا ترعى مراعيها". ولمّا فرغَ مِنْ نظامِه وفهمَ الفرقد قصدَه ومرامه قال: "بلاءُ الإنسان مِنَ اللّسان، ولا يفعل بالحديد إلاّ المبرد"، وبرّقَ بعينيه _ وسّعَهما _ فقالَ سهيل: "برّقْ لمنْ لا يعرفك _ هدِّدْ مَنْ لا يعرفك، فمَنْ يعرفك لا يعبأ بك _ قالَ الفرقد: "إذا جرى الحصان حسرتْ عنه الحُمُر _ أي عجزتْ دونه الحمير _ قالَ سهيل: "صمْتُ الجاهلِ ستره"، قالَ الفرقد: "كلٌّ يحصد ما زرع ويُجزى بما صنع". وهجمَ على خصمِه ليستلَّ روحَه مِنْ قلبِه. وظلاّ في حربٍ وقتالٍ وكفاحٍ، وهذا ينحذف كأنّه الأسد المغوار وذاك يثني عليه بالرمح بعياقتِه حتى إنكسر سيفُ سهيل، فصاحَ به الفرقد وضربَه بسيفِه، فشقَّه نصفين وأوقعه على الأرضِ قطعتين. وبرزَ غرابُ البين وطلبَ الثعبانَ، فأجابه وسألَه: "مَنْ أنتَ أيّها العبد"؟، قالَ: "أنا غراب البين ومرادي أن أقطع رأسَك بهذا السيف". وتقاتلا حتى خرجتْ منهما ضربتان، أمّا ضربة الثعبان فأبطلَها غرابُ البين بطارقةِ البولاد، وأمّا ضربة غراب البين فنزلتْ على الثعبان وجرحتْه، وأدركَه أولادُه بسرعة وحملوه إلى الصيوان. وكَرّ الكرُّ إبن أتان على غراب البين، وقَوِيَ عليه وضايقَه ولاصقَه وسدَّ عليه طرقه وضربه بالبتّار فجرحه جرحاً بليغاً ألقاه على الأرض، وقالَ له بعدَ الزفير والشهيق، وهو عين النهيق: "قمْ وأسرعْ داوي جرحَك وارسلْ غيرَك". وبرزَ أبو وهب جحّوش، قوِيَ عليه الكرّ إبن أتان وقطعَ رأسه، وبرزَ البغل أبو الأثقال الذي سرعان ما إنجرح وإستجار فأُجير. ولم تزل الفرسان تنزل إلى الكرّ فيصرعها على الثرى إلى أنْ قتلَ عشرة وجرحَ عشرين وأسرَ ثلاثين. ورأى الأمير حُمُرات فتكَ إبن أتان بأخيارِ قومِه، جنّ جنونه وأمرَ بالهجوم. وهجمتِ العساكرُ على بعضِها البعض، وظهرَ الشجاعُ وبان، وحمي الوطيس حتى الرؤوس طائرة والخيل شاردة إلى المساء حين إفترقوا.

وصباحاً برزَ الكركدن وحيدُ القرن ، بعدما إصطفّ الفريقان، فبرزَ له أبو راشد الفأر، قالَ له وحيدُ القرن، وهو على أصيلة سرجها مِنْ جلْدِ سبعٍ مطرّزٍ بالذهبِ الإبريز: "إرجعْ إلى أهلك قبل أنْ تهلك"، قالَ له الفأرُ: "خسئتَ أيّها النذل". إنحمقَ وحيدُ القرن وقالَ بلسان الأمير غانم: "يقول الفتى غانم إستمعْ.. أنا مفرّج الكروب بين العرايب.. وأنتَ صغير السنّ ما أنت قدّنا.. فتبرز لأصحاب اللحا والشوارب". قالَ له الفأرُ بلسانِ البطل الجرو إبن الأمير كليب وجليلة بنت مرّة: "تُعيّرُني في صِغر سِنّي جهالة.. فإنْ جرّبتَني لقيت الصعايب.. ومَنْ لا يشتري روحَه بروحٍ بدالها.. يكون بينَ الناس جباناً وعايب.. لسانُك حصانُك تصونُه يصونُك.. وإن خنتَه رماكَ بأكبر مصايب". وإلتحما في الحربِ والقتال، ولم يثبتْ وحيدُ القرن وفرّ هارباً. وبرزَ أبو قزنب الفيل، قاتلَ قليلاً وولّى هارباً. وصارتِ الفرسان تنزل، ومنها مَنْ يهرب ومنها مَنْ يُقتل، وبلغ عددُ القتلى مِنْ دون الجرحى والهاربين مئة صميدع، وأعلنَ الأمير حُمُرات، وفرائصُه ترتعد، أنَّ مَنْ يقتل الفأرَ سيزوّجه بنتاً مِنْ بناته. وطمعَ النَسِرُ إبن أم قشعم وصدمَ الفأرَ صدمةً قويّة، وجرى بينهما قتالٌ شديد، وضربَ إبنُ أم قشعم بالرمحِ فنزلَ الفأرُ تحت بطنِ الجواد، وأثنى إبنُ أم قشعم بالسيف فأخذه الفأرُ بترسِ البولاد، وثلّثَ بالدبّوس فما نال منه مرادَه، وعند ذلك أغارَ عليه الفأرُ وطعنَه بعودِ الزان فجاءتِ الطعنةُ في فخذِه، وثنّى عليه بالسيف فقطعَ رأسَه.

وانطلقَ الطبلُ الرجّوج واهتزّتِ السهولُ والمروج والتقتِ الأبطال بالأبطال وجرى الدمّ وسال، وزادتِ الأهوال وطارتِ الرؤوس عنِ الأبدان، وتغلّبَ الأمير أحمرة على الأمير حُمُرات. وصاح حُمُرات بقومه: "إحملوا عليهم حملةً واحدة". ومالوا على قوم أحمِرة ميلةً واحدة. وزادتِ الأهوال، وقصرتِ الآجال، وماتوا بالملايين، وصاحَ أحمِرة بقومِه: "إثبتوا ولا تتراجعوا"، وطارتِ الرؤوس، وزُهقتِ النفوس،

ولم يزل السيفُ يعمل والرجال تُقتَل حتى ولّى النهار وأقبلَ الليل ودقّتْ طبولُ الإنفصال.

وإفتقدَ أحمِرةُ جيشَه فإذ الباقي خمسمئة، وإفتقدَ حُمُرات جيشَه فإذ الباقي ألف. وفجراً نهضَ أحمِرة ومَنْ بقي معه يفتّشون عنْ محلٍّ آمِنٍ يتحصّنونَ فيه فرأوا مكاناً بين الصخورِ والتلال، وطلبَهم حُمُرات صباحاً تجديداً للقتال فلم يعثر على أحد، فتقدّمَ هو وجيشه فما رأوا إلاّ والنبال، كما في قصّة الزير سالم بالتمام والكمال، تشكّ في أجسامِهم وخيولِهم وتأتيهم مِنْ بين الصخورِ والتلال. وتجدّدَ الكفاح بضربِ السلاح، وفتكوا ببعضهم بعضاً فتْك البواشق بالعصافير أو فتك الذئاب بالحملان، ولم يبقَ حيّاً مِنْ جيش أحمِرة إلاّه ولم يبقَ حيّاً مِنْ جيش حُمُرات سواه. وتناجزا بالنشنشة _ لسان المقلي _ والزمجرة _ لسان الأسد _ والقصف _ لسان الرعد _ وقال أحمِرة عن دياب الفتى الزغبي: "يقولُ الفتى الزغبي دياب الماجد.. ونيران قلبي زايدات اللهايب.. أيا ذا الوحش لو تعلم بهمّتي.. لتغذي على الأعقاب في البرّ هارب.. أنا فارس البيدا حقيق مجرّب.. ولا أنا مِن سطوتِك بهايب.. هذا اليوم لأدعيكَ مجندلاً.. وتجري دماكَ على الثرى سكايب". قالَ حُمُرات عن العقيلي الفارس المغوار: "يقولُ العقيلي والعقيلي حنظلْ.. لا خير في فتى يعيش ذليلْ.. ولا خير في سلطان يأمنُ عدوَّه.. فذاكَ عقلُه ناقص وقليلْ.. نعم أيّها الغادي على متنِ ضامر.. يشابه الريم بالفلا جفيلْ.. تعالَ إلى الميدان أيا سلاّمه.. لخلّي دماك على الثرى يسيلْ". ولبطَ أحمِرةُ بالطول والعرض وقال: "كلُّ رأسٍ به صداع"، وعملَ حُمُرات مثله وقال: "رُبّ رأس حصيد لسان"، وقالَ أحمِرة ساخراً: "تحفظ أخاك إلاّ مِنْ نفسِه والحقُّ مغضبة _ يُقال للرجل تصدقه عنِ الأمر فيغضب _ وقالَ حُمُرات ساخراً مثله: "بقبقة في زقزقة" _ والبقبقة: كثرة الكلام والعجن، والزقزقة: أي الضحك، والمثل يُضرَب للمفتخِر بما ليس عنده _ وقالَ أحمِرة: "هل تلد الذئبةُ إلاّ ذئباً"؟، وقال حُمُرات: "آخر الداءِ الكيّ"، وقالَ

أحمِرة: "جنَتْ على أهلِها براقش _ وفي هذا المثل أنّ قوماً كانوا هاربين مِنْ وجهِ أعداء لهم وكانت لهم كلبة يُقال لها براقش، فبينما هم يسيرون ليلاً نبحتْ، وكان الأعداءُ بالقرب منهم يفتّشونَ عنهم، فإهتدوا إليهم بنباحِ الكلبة وأوقعوا بهم، فسارَ بها المثل _ وقالَ حُمُرات: "قطعتْ جُهيزةُ قولَ كلِّ خطيب _ وجُهيزة جارية دخلتْ على أعيانِ قوم يخطبون للمصالحة عنْ دمّ قتيل فقالتْ: إنّ أهلَ القتيل ظفروا بالقاتل، فقالوا: قطعتْ.. إلى آخره، فصارَ قولُهم مثلاً. وهجمَ البطلان على بعضيهما كأنّهما جبلان وإفترقا كأنّهما مركبان وحان عليهما الحين وغنّى فوق رأسيهما غرابُ البين وقامَ الأمير حُمُرات في عزمِ الركاب وضربَ الأمير أحمِرة، فمالَ عنِ الضربة، وإعتدل، وضربَه بالدبّوس على رأسه. وبقي حُمُرات متماسكاً وشنّ هجوماً معاكساً. وظلاّ على إفتراق وإلتحام بحملات متكرِّرة تهدُّ الجبال الراسيات..

وختم الراوي بالقول،

فيما الشمسُ تتسلّق سلّمَ السماء

وعقولٌ لا تزال تغرق في محيطات الظلمة والرمل:

"أنا القاتل المقتول والمقتول القاتل.

وصلَ الحضيضُ إلى الحضيض.

لكم ضاجّتكم ولي ضاجّتي.

أجْرَمنا، جرَّمنا، وجَرَمنا اللحمَ عن العظم،

إنكتِموا فقط، إنكتموا.

إثنان:

واحدٌ ينهقُ وآخر يزعق،
وفيما النهيقُ طبيعةٌ غرامها المَرَح
فإنّ الزعيق صناعة غوايتها أزيز الرصاص،
دويّ المدافع، جعير الصواريخ، الحقد والكراهية.
واحدٌ لا يعرفُ الكذب
وآخر يقيمُ يوماً في السنة عيداً للكذب.
ليس في قاموسِ الأوّل كلمة ثأر
فيما الثاني يرفع أسمى الشِعر لحضرةِ الثأر
وله فيه معلّقة مخطوطة بماء الذهب.

أيّهما، ويدي على رؤوسكم، ألطف،
أهيف، أشفّ، أنظف وأشرف من الآخر؟.

Shawkimoselmani1957@gmail.com

(2003)

مصادر

* سيرة بني هلال _ دار الكتب الشعبيّة.
* قصّة الزير سالم _ دار الكتب الشعبيّة.
* حكمة الشعوب _ إعداد يوسف فرج _ دار الريحاني.

* نوادر الظرفاء _ إعداد يوسف مروّة _ دار الفكر العربي.
* موسوعة الفلكلور والأساطير لشوقي عبد الحكيم _ دار العودة.
* قصّة عنترة بن شدّاد.
* التراث الشعبي _ 1976 _ دار الحريّة للطباعة.
* صحف ومجلاّت عربيّة وأجنبيّة ورقيّة وألكترونيّة.
* المنجد في اللغة والإعلام _ دار المشرق _ بيروت.

الغلاف:

* الشاعر وديع سعادة: "إذْ يُضحكنا شوقي في بعض ما يقول فإنّه لا يفعل سوى أن يُبكينا على ذواتِنا ويجعل الحيوانات التي يجب أن نبكيها هي تبكينا".
* الدكتور رغيد النحّاس: "يبسط مسلماني نصوصَه وفق خطوط يصل كلٌّ منها ما بين نقطتين متناقضتين وخطوطه تتشابك في نسيج يأتي بعضُه مِنَ المحكية بأسلوب عصري وكأنها تحممتْ بفخامةِ التراث وتعطرتْ بسلاسةِ الحاضر وتحمل في معناها شحنة كهربائية تصعق".
* الكاتب خليل الجيزاوي: "تُشكِّل الأسطورة روح المقاومة الشعبية ويلعب المخيال الشعبي في نسيج خيوطها كي تعيش في وجدان الناس. وتبقى الحكاية ضمن السياق، ولذلك إختارَ شوقي مسلمانى العودة إلى السِيَر الشعبية: "تغريبة بني هلال"، "الزير سالم"، "عنترة"، وغيرها، وراح ينسج هموماً وأحزاناً بخيوط هموم وأحزان وإنكسارات تكشف عن الحقيقة التي تناثرت هنا وهناك أشلاءً، وكيف إختلط الحقّ مع الباطل وتاهت معالم الطريق".
* القاصّ سليمان الفهد: "قصص ترمز إلى الواقع بقالب قلّما نعهده في الكتابات المعاصِرة".

* د. مفيد مسّوح: "حكايات في عوالم التكوين والكائنات والحكمة، شمول وسلاسة، تصنع صورة مِنْ كلّ حركة، في صياغتها الرسّام والشاعر، وجهد كبير فوق مستوى قارئ عابر".

* د. رأفت خليل": كتاب أحمِرة وحُمُرات، وبكلّ صراحة، هو كتاب إدانة للإنسان مذ كان، فمهما يبدو الإنسان عاقلاً وحكيماً هو سرعان ما يكشف عن جوهره عند أوّل مفترق طرق، وينطق بالحقّ ويفعل الباطل، يعيّن المشكلة ويخوض بالدمّ من أجل حلّها، ولا يزيد الأمور إلاّ تعقيداً. وما سبق هو من ثيمة هذا العمل غير المألوف والرائع حقّاً.

Shawkimoselmani1957@gmail.com

الغلاف للفنّان محمّد خالد.